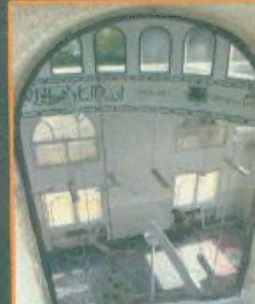




ناعوم تشومسكي

أوهام الشرق الأوسط

تعريب: شيرين فهمي



مكتبة الشرق الدولية

..مادلين أولبريت ، حينما كانت سفيرا للولايات المتحدة
في الأمم المتحدة .. سألتها ليسلى شتال عن إحساسها تجاه
مقتل نصف مليون طفل عراقي ...أجابتها :
نعتقد بأن الثمن كان يستحق.

دينيس هاليداي، منسق البرنامج الإنساني للأمم المتحدة
في العراق .. اضطر للاستقالة بعد إرغامه على تنفيذ ما
أسماه الإبادة...
كذلك فعل خليفته هانزفون شبونيك

(المفاوضات تعبير لطيف للاستسلام إذا لم ترم القوة ظلها
على طاولة المفاوضات)
جورج شولتز - وزير الخارجية الأمريكي الأسبق .

اتفاقيات أوصلو قامت على
قاعدة الاستعمار الجديد، حيث يعتمد طرف على آخر
مدى الحياة
شلومو بن عامى - وزير الخارجية الإسرائيلي الأسبق.



أوهام الشـرق الأوسط

الطبعة الثانية
١٤٢٧ هـ - يناير ٢٠٠٦ م



٩ شارع السعادة - أبراج عثمان - روكسى - القاهرة

تليفون وفاكس: ٤٥٠١٢٢٨ - ٤٥٠١٢٢٩ - ٢٥٦٥٩٣٩

Email: < shoroukintl @ hotmail. com >

< shoroukintl @ yahoo.com >

ناعوم تشومسكى

أوهام الشرق الأوسط

تعريب: شيرين فهمى

تقديم

كتب ناعوم تشومسكى «أوهام الشرق الأوسط» ليبدد ما لدى الشعب الأمريكى من ظنون وأوهام عما يحدث فى العراق... أو أن هناك «عملية سلام» تتم على خطوات فى الشرق الأوسط... ويطالب الشعب الأمريكى أن يأخذ موقفاً إيجابياً أميناً وشريفاً تجاه سياسة أمريكا فى المنطقة.

يبين تشومسكى فى الكتاب استراتيجية أمريكا وإسرائيل فى المنطقة، من أقوال المسؤولين، وأحداث التاريخ - من حروب وثورات ومفاوضات ودعاية - فيما يخص بلاد المنطقة: العراق - فلسطين - إيران - السعودية - مصر - سوريا - لبنان.

ولعل كتاب تشومسكى بما يحوى من حقائق ووثائق، ينبهنا نحن أيضاً فى الشرق الأوسط، شعوباً وحكاماً - حيث المسألة بالنسبة لنا أهم منها بالنسبة للشعب الأمريكى - ويجدد لنا معلوماتنا، وتصوراتنا، عما نظنه يجرى فى منطقتنا، حولنا، وعندنا، وبنا، وبواسطتنا، ولعلنا نتدارك ما فاتنا، ونعدل من سياستنا... ولعلنا لا نتخذع بالوعود المبهمة التى تحتل كل تأويل، ولا تغرنا كلمات التحية والمجاملة، أو عبارات المديح والإطراء.

يتبع تشومسكى فى الكتاب ما عود قارئه عليه، من جرأة فى سرد الوقائع واستنتاجاته منها، وبأسلوبه اللاذع والساحر.

عادل المعلم

الفصل الأول

«عملية السلام»

فى الاستراتيجية الأمريكية العالمية

هدفى الأول فى هذا الفصل هو توضيح مكنون «عملية السلام» ، ومحتواها ، ومستقبلها . وإذا أردت أن أقدم خلاصة سريعة عن هذه العملية ، فيمكننى القول بإيجاز : إن مشروع مدريد-أوسلو ليس إلا تثبيتاً وتأكيداً على سيادة مبدأ القوة فى العلاقات الدولية ، سواء على مستوى صنع السياسة أو على مستوى الفكر والعقيدة . وفى اعتقادى ، أن أساس هذا الحكم ينطلق من نصوص الاتفاقيات المبرمة ، ومن الإطار العام الذى تشكلت وترعرعت فيه «عملية السلام» ، والحقيقة أننا لسنا بحاجة لكى ندلل على التأثير الأمريكى الساحق فى المنطقة العربية ، منذ سنوات طويلة ، وكذلك ، فإنه ليس من المفاجأة أن تكون اتفاقيات مدريد-أوسلو انعكاساً واضحاً لهذا الأمر . وترتيب هذا الفصل سيكون على النحو التالى : سأبدأ أولاً بسرد بعض الملاحظات عن الاستراتيجية الأمريكية العالمية ، ثم سأقوم بالتركيز على منطقة الشرق الأوسط ، وأخيراً سأتناول موضوع عملية السلام ، موضعاً جذورها ، ومحتواها المادى^(١) .

وسأنتقل هنا إلى الفترة التى تلت الحرب العالمية الثانية ، عندما صارت الولايات المتحدة القوة المهيمنة على العالم . صحيح ، أنها كانت قبل ذلك تمثل أضخم قوة اقتصادية فى العالم ، إلا أن سيطرتها لم تتجاوز منطقة الكاريبي-وسط أمريكا ، ولم تتجاوز المحيط الهادى (هاواى ، جزر الفيليبين) .

ولكن سياسة النفط كانت أمراً استثنائياً ، فعلى أواخر عشرينيات القرن العشرين ، طالبت الولايات المتحدة بحصة - وقد أخذتها بالفعل - فى نفط الشرق

الأوسط، آخذة بذلك قسطاً أو نصيباً من الهيمنة النفطية، التى كانت تحتكرها كلٌّ من فرنسا وبريطانيا. بل إن منافسة الولايات المتحدة لبريطانيا فى مجال البترول، قد بدأت قبل ذلك، حينما أزاحت الأولى الثانية عن الأراضى الفنزويلية، مستأثرة بتلك الدولة التى كانت تعتبر رائدة العالم فى تصدير النفط، فيما بين عامى ١٩٣٠ و ١٩٧٠م، والتى أصبحت أيضاً فى منتصف التسعينيات المصدر الأساسى للنفط الأمريكى، منافسة بذلك المملكة السعودية^(٢). بل الأكثر من ذلك، لقد تحولت الولايات المتحدة نفسها إلى المنتج الأساسى للنفط، حينما قامت إدارة «ويلسون و بيلسون» بطرد بريطانيا من فنزويلا، وظلت الولايات المتحدة على هذه الحال حوالى نصف قرن^(٣).

والمبدأ الأساسى لسياسة النفط الأمريكية، كما أعلنتها إدارة «ويلسون» وكما أعلنتها الإدارات اللاحقة بعد الحرب العالمية الثانية، أن الولايات المتحدة لا بد أن تحتفظ «بموقف (سيطرة) مطلق» فى نصف الكرة الغربية، «مع الإصرار، فى نفس الوقت، على مبدأ الباب المفتوح لإيجاد فرص متساوية للشركات الأمريكية فى المناطق الجديدة^(٤)». باختصار، ما لدينا نمنعه عن الآخرين، ونغلق الباب فى وجوههم، وما ليس لدينا نطلبه من الآخرين من خلال فتح الباب بالقوة فى ظل المنافسة الحرة. وبالمناسبة، هذا هو الأسلوب الذى تُدار به سياسة «التجارة الحرة» و «الباب المفتوح».

وقد تجلت القوة الأمريكية فى أثناء الحرب العالمية الثانية، حينما قامت الولايات المتحدة بإزاحة بريطانيا وفرنسا عن نصف الكرة الغربية، مستأثرة بالهيمنة فى هذه المنطقة، ومتحدية قوانين النظام الدولى. وقد تمكنت الولايات المتحدة، من خلال ذلك، تدشين حجر الأساس لسياستها الخارجية، وهى: إخراج المنافسين الإمبرياليين من العالم الغربى، تحت اسم «وثيقة مونرو». تلك الوثيقة التى برزت معانيها فى مساعى ومقاصد إدارة «ويلسون». ومن مقولات وزير الخارجية، فى ذلك الحين «لانسبنج» - الخاصة - عن الوثيقة: «إن الولايات المتحدة ترعى مصالحها، بتأييدها لوثيقة مونرو. سيادة دول أمريكا الأخرى وسيلة عارضة وليست غاية فى حد ذاتها. وبالرغم من أن هذا يبدو منطلقاً أنانياً بحثاً، إلا أن مؤلف الوثيقة لا يرى دافعاً أسمى ولا أشرف، مما فى الوثيقة». وبالرغم من شعور

الرئيس «ويلسون» بأنها وثيقة غير لائقة، لتشر على العلن، خاصة فى هذه اللحظة التى كانت «المثالية» الأمريكية فى العلاقات الدولية قد وصلت إلى أوجها، إلا أنه عقب فى النهاية على مقولة «لانسينج» قائلاً: بأنها «لا يمكن ردها». وبفرض هذه الوثيقة، استلمت أمريكا اللاتينية «مهمتها الجديدة فى النظام العالمى الجديد»: «بيع المواد الخام» و«امتصاص فائض رأس المال الأمريكى»^(٥).

لقد تحدثت عن هذا النموذج، لكى يختزنه القارئ فى ذاكرته، ثم يستدعيه عند اقترابه من الشرق الأوسط. ومن الجدير بالذكر، أن المنافس/ المتحالف البريطانى ل واشنطن قد أدرك جيداً أهمية هذه الوثيقة أو هذا النموذج. فكتب للورد «كيلرن»، بعد الحرب العالمية الثانية، قائلاً: «كان أملى دائماً أن نتبع النموذج الأمريكى الحكيم فى المنطقة (الشرق الأوسط) فى الأعوام الماضية. كنت أود لو أننا أخرجنا وثيقة مثل وثيقة مونرو، موضعين لساكنى المنطقة أننا لدينا «الذخيرة فى المدافع» وأنا «سنطلقها» عند اللزوم». وكذلك لاحظ «وليام روجر لويس» ما فعلته الولايات المتحدة مع بريطانيا، عندما كشفت لها عن رغبتها فى السيطرة على السعودية، الأمر الذى استفز الوزير البريطانى، فصاح قائلاً: «هذه ليست پنما أو سان سلفادور». إلا أن «البريطانيين كانوا مدعنين ومعترفين بالتعامل الأمريكى مع السعودية وكأنها دولة أمريكية لاتينية»^(٦).

وبعد الحرب العالمية الثانية، سعت واشنطن إلى مد نموذج «مونرو» إلى مناطق الشرق الأوسط المنتجة للنفط، وكانت بريطانيا متحالفة معها فى ذلك، وإن كان تحالفاً صعباً. وبمقتضى هذا المد - حسبما كان يفسره الرئيس ويلسون من قبل - فإن الولايات المتحدة سيكون لديها الحق فى التصرف كما يحلو لها، وبدون تدخل أى طرف، سواء كان هذا الطرف الأمم المتحدة، أو محكمة العدل الدولية، أو منظمة الولايات الأمريكية، أو أى طرف آخر. وقد ظهر ذلك جلياً فى فبراير ١٩٩٧م، عندما قامت الولايات المتحدة برفض ما قضت به منظمة التجارة العالمية ضد العقوبات التى فرضتها الإدارة الأمريكية على كوبا، وذلك بعد أن قدم الاتحاد الأوروبى التماساً إلى المنظمة. وكما أوضحت «النيويورك تايمز» ساعتها، فإن إدارة كلينتون تحججت حينذاك قائلة: «إن أوروبا تتحدى ثلاثة عقود من السياسة الأمريكية تجاه كوبا، والتى تمتد منذ إدارة «كيندى»، تلك السياسة التى تأمل فى

إحداث تغيير بحكومة هافانا»^(٧). وقد اتخذت الإدارة الأمريكية نفس الموقف، حينما رفضت قرار المحكمة الدولية بخصوص إنهاء «الاستخدام غير الشرعى للقوة» (وهو الإرهاب الدولى) ضد نيكاراغوا، وكذلك رفضها دفع أية تعويضات^(٨). رفضت ومنعت الولايات المتحدة نداءات وقرارات الأمم المتحدة للدول باحترام القانون الدولى، ولم يساند الولايات سوى إسرائيل (ومن حين لآخر ميكرونيزيا، وألبانيا وأشباه ذلك من الدول).

وفى ظل إدارة كلينتون، تم تطبيق نموذج «مونرو» فى منطقة الشرق الأوسط، عندما أدلت وزيرة الخارجية السفيرة فى الأمم المتحدة - حينذاك - «مادلين أولبرايت» بكلامها أمام مجلس الأمن، مبينة الأهمية القصوى للمنطقة بالنسبة للمصالح الأمريكية، قائلة: «إننا سنتصرف «جماعياً عندما نستطيع، وستتصرف أحادياً إذا استلزم الأمر»؛ لأننا «نعتبر هذه المنطقة ذات أهمية قصوى للمصالح الأمريكية القومية»، ومن ثم لا نعتزف بأية حدود أو عراقيل، أو حتى بقانون دولى أو أمم متحدة^(٩). هذه كانت امتيازات القوة المهيمنة، وقد وجدت عملية السلام نفسها فى هذه الأجواء.

لقد تركت الحرب العالمية الثانية الولايات المتحدة فى وضع قوة الهيمنة العظمى، التى تمتلك نصف ثروات العالم، والتى تستمتع بامتيازات عظيمة فى كل منطقة. ومن ثم لم يكن مفاجئاً، كما يقول المؤرخ الدبلوماسى «جيرالد هينز» وكذلك المؤرخ الأول لوكالة المخابرات المركزية، أن «تتولى الإدارة الأمريكية، بعد الحرب العالمية الثانية، المسئولية عن رفاهية النظام الرأسمالى العالمى، من منطلق مصلحتها الخاصة». وكما ذكر مدير تنفيذى لشركة نفطية بنىوچيرسى، واصفاً الوضع فى عام ١٩٤٦م: أن الولايات المتحدة «ملزمة بتولى المسئولية عن حملة الأسهم فى هذه الشركة الكبيرة التى تسمى العالم^(١٠)».

بعد الحرب العالمية الثانية، بدا هناك مهمة أساسية محلية أمام الإدارة الأمريكية. تمثلت فى صناعة إجماع شعبى على أن «الصناعة المتقدمة لا تتحقق إلا بالدعم الحكومى^(١١)»، وسرعان ما تم التحقق من أفضلية نظام الإنتاج فى تعميم التكاليف والمخاطر على كل الشعب، بينما يتم تخصيص السلطة والربح؛ لأنه - من ضمن أسباب أخرى - يسهل إخفاء الدعم أو قبوله تحت ستار الأمن القومى، كما لاحظت إدارة ترومان. ولذا، كانت فترة

الحرب الباردة متسمة بتصاعد الإنفاق على البتاجون، الأمر الذى كان يؤيده ويصر عليه النواب الجمهوريون، ومتسمة فى نفس الوقت بخفض الدعم الاجتماعى. وأما المهمة الثانية، فقد تلخّصت فى إعادة بناء اقتصاد الدول الصناعية، وإعادة نظمها التقليدية (ومن بينها المتعاونون مع النظام النازى والفاشى) مع تفكيك المعارضة وقاعدتها الجماهيرية. وكان ذلك هو الفصل الأول فى تاريخ ما بعد الحرب العالمية الثانية، والذى بدأ بإيطاليا فى عام ١٩٤٣م^(١٢).

وفى حالة إيطاليا، وكذلك اليونان وتركيا، كان نفط الشرق الأوسط يمثل أهمية كبيرة. و«المصالح الاستراتيجية الأمريكية» بحاجة إلى السيطرة على «الطرق المؤدية إلى منافذ الشرق الأدنى لأبار النفط السعودى»، من خلال البحر المتوسط. ومن ثم، فهذه المصالح سوف تُهدد إذا سقطت إيطاليا فى «أيدي أى قوة كبرى» (بما معناه، أى قوة غير الولايات المتحدة)^(١٣). وقد أخذت الإدارة الأمريكية هذا المبدأ مأخذ الجد. وكان أول إقرار سرى لمجلس الأمن القومى، الذى كان ما زال جديداً حينذاك، هو التأييد العسكرى للعمليات غير المعلنة فى إيطاليا مع تعبئة قومية فى داخل الولايات المتحدة، فى «حالة وصول الشيوعيين إلى الحكومة الإيطالية من خلال طرق شرعية» فى انتخابات ١٩٤٨م. بل إن المخطط «جورج كينان» أراد الذهاب إلى أبعد من ذلك، فكان يسعى إلى حظر الحزب الشيوعى الذى كان من المتوقع أن يكسب الانتخابات بطريقة شرعية. وكان «كينان» يسعى إلى ذلك، مع كونه يعلم، تمام العلم، بأن حظر الحزب يمكن أن يؤدى إلى حرب أهلية، وتدخل عسكرى أمريكى، و«انقسام عسكرى فى إيطاليا»^(١٤). خلاصة الأمر، أن ظلت إيطاليا هدفاً أساسياً للمخابرات الأمريكية المركزية، على الأقل حتى سبعينيات القرن العشرين.

إن تقويض الديمقراطية الإيطالية - والذى أدى إلى تفشى الفساد والجريمة بنسبة كبيرة - لم يكن مقصوراً على مبادرات الحكومة الأمريكية، وإنما امتد إلى شركات النفط الأمريكية مثل «إيكسون» و«موبيل»، وكذلك الشركات البريطانية مثل «BP»، وشّل، اللتين قدمتا تمويلات ضخمة للأحزاب السياسية المناهضة للشيوعية الإيطالية. والأمر اللافت للانتباه وجدير بالذكر فى آن واحد، أنه بينما يُعتبر التمويل الخارجى للأحزاب السياسية الأمريكية عملاً غير شرعى وغير

قانونى، بل عمل يشوبه العار لكونه يقمع العملية الديموقراطية، فإن التدخل الأمريكى فى العمليات الانتخابية بالخارج - والمتشتر على الساحة العالمية بشكل ملحوظ - يتم الثناء عليه وتصويره على كونه منحاً كريماً وسعياً للتقدم الديموقراطى. وكذلك الوضع بالنسبة لموضوع الإرهاب، فإنه يكون «وباء العصر الحديث» عندما يُوجه إلى الولايات المتحدة أو إلى عملاتها، بينما يكون عملاً مقدساً عندما يصبح الضحية مكان الجانى^(١٥).

أما اليونان، فكان يُنظر إليها رسمياً على كونها جزءاً من الشرق الأوسط وليس من أوروبا واستمرت هذه النظرة حتى قام اليونانيون بقلب نظام الحكم الفاشى، المدعم من قبل الولايات المتحدة، فى سبعينيات القرن العشرين. لقد كانت اليونان جزءاً من أطراف المنطقة، تلك المنطقة التى كانت مطالبة بضمها للسيطرة على النفط الشرق أوسطى، والتى كانت وزارة الخارجية الأمريكية تصفها الوصف التالى: «مصدر هائل للقوة الاستراتيجية، وإحدى الهبات المادية الكبيرة فى تاريخ العالم»، «وربما أترى هبة فى العالم فى مجال الاستثمار الخارجى» وأكثر المناطق أهمية من الناحية الاستراتيجية فى العالم» على حد قول «أيزنهاور»، عندما كان يصف شبه الجزيرة العربية. وقد علق «جندزير» قائلاً: «على عام ١٩٤٧م، كانت أهمية شرقى البحر المتوسط والشرق الأوسط للسياسة الأمريكية فوق أى جدال. المصالح الاقتصادية والاستراتيجية كانت تطفئ على حسابات السياسة الأمريكية، سواء فى تركيا، أو إيران، أو السعودية، أو فلسطين، أو لبنان،» بينما كان الأمر بالنسبة للحلفاء البريطانيين مثيراً للرعب، حيث اعتبروا المشاريع الاقتصادية لسياسة الباب المفتوح تؤدي فى النهاية إلى «حكر شرقى البحر المتوسط والشرق الأوسط فى نطاق السياسة الاقتصادية الخارجية الأمريكية، لمجرد أن المنطقة تمثل مصدراً مهماً وممرّاً للنفط». ولم يكن الانشغال الأمريكى قاصراً على جنوبى أوروبا، وإنما امتد أيضاً إلى الهند، حيث كانت «هيمنة... الاتحاد السوفيتى التى ستجعلنا ندفع ثمن الشرق الأوسط كله»، كما حذر «أيزنهاور» فى عام ١٩٥٤م^(١٦).

وكانت المهمة الثالثة، بعد الحرب العالمية الثانية، تتمثل فى إعادة العالم المستعمر سابقاً إلى وظيفته التقليدية، وهى «وظيفة» توفير «السعادة والرفاهية للنظام الرأسمالى العالمى». وصارت وثائق التخطيط العليا تُعرف «الاقتصاد القومى (للدول الأخرى)»

على أنه خطر كبير. ذلك «الاقتصاد القومي» الذى يقوم على مبدأ أن «المستفيدين الأوائل من تنمية مصادر الدولة هم شعب تلك الدولة». وطبعاً كانت الولايات المتحدة ملزمة بإنهاء هذه التوجهات الخطيرة، حتى تكرر مكانها توجهات أخرى، وهى: أن المستفيدين الأوائل هم المستثمرون الأمريكيون وأمثالهم فى أى مكان، ومن ثم يجب منحهم المناخ المناسب والملائم لإدارة أعمالهم، ولتمكينهم من الوصول بسهولة إلى الثروات المادية والإنسانية الموجودة بالمناطق التى تعمل فى خدمتهم. بلغة أخرى، أن كل ما سيستفيد منه سكان الشرق الأوسط سيثول فى النهاية إلى الولايات المتحدة وإلى حلفائها. وقد ذكرت الوثائق الداخلية هذه الحقائق كلها، بتمهتّى الوضوح. وبدون تكلف، وبلهجة خشنة للغاية.

إن الاقتباسات، التى استشهدنا بها فى الفقرتين الأخيرتين^(١٧)، تخصان أمريكا اللاتينية، التى كانت بعيدة كل البعد، فى ذلك الوقت، عن أى تدخل سوفيتى، كما كان الحال مع الشرق الأوسط. وبالرغم من أن السياسات الأمريكية وقعت، بعد ذلك، فى حبال الحرب الباردة، إلا أن الدافع الأساسى ظل كما هو، حتى بعد الحرب الباردة، اللهم إلا بعض المراجعات التكتيكية. ومرة أخرى، نجد أنفسنا بصدد معلومات مهمة لفهم عملية السلام.

وإذا ألقينا نظرة سريعة على تطور الأحداث بعد سقوط برلين فى نوفمبر ١٩٨٩م، والذى انتهت به الحرب الباردة، فسيتبين لنا التغير الطفيف الذى طرأ على السياسة الأمريكية. فبعد سقوط السور مباشرة، سارعت الولايات المتحدة فى احتلال بنما، والذى قتلت من خلاله مئات أو ربما آلاف المدنيين، وأقامت حكومة من رجال البنوك، ورجال الأعمال، وتجار المخدرات. بل أعلنت الفيتو على قراراتين لمجلس الأمن، يشجبان الاعتداء الأمريكى، وكذلك تجاهلت استنكار «منظمة الولايات الأمريكية» و«جماعة الديموقراطيات الثمانى بأمريكا اللاتينية»، التى أخرجت بنما من الجماعة، لكونها واقعة تحت سيطرة عسكرية. وكذلك، تجاهلت الاحتجاجات الجماهيرية فى داخل بنما، بما فيها لجنة حقوق الإنسان التابعة لحكومة العرائس المتحركة، والتى ظلت لسنوات عديدة تشجب «وضع الاحتلال من قبل جيش أجنبى»، مستنكرة التجاهل الأمريكى الواضح لحقوق الإنسان^(١٨).

وبنفس المعايير وبنفس الطريقة، تعاملت واشنطن مع الشرق الأوسط. فبعد انتهاء الحرب الباردة أيضاً، أعلنت واشنطن القيتو على قرار مجلس الأمن الذي استنكر الممارسات الإسرائيلية المشينة في الأراضي المحتلة، كما أعلنت القيتو (بمشاركة إسرائيل وحدها) على قراراتين للجمعية العامة، يطالبان جميع الدول باحترام القانون الدولي بخصوص أمرين: الأول يتعلق باستنكار المعونة العسكرية الأمريكية للقوى الإرهابية التي تهاجم نيكاراغوا^(١٩)، والثاني يتعلق بالعقوبات الاقتصادية غير الشرعية ضد نيكاراغوا. كما صوتت الولايات المتحدة مع إسرائيل، ومعهما الدومينيكان، ضد قرار يعارض ضم الأراضي بالقوة (١٥١-٣). وكان هذا القرار يطالب بالتسوية الدبلوماسية للصراع العربي الإسرائيلي، بحدود معترف بها و ضمانات أمنية، بنص قرار الأمم المتحدة ٢٤٢، ومبدأ حق تقرير المصير بالنسبة إلى إسرائيل وإلى الفلسطينيين، الأمر الذي لم يوافق عليه - وهو أن يحدد الفلسطينيون مصائرهم - الدولتان الرافضتان: إسرائيل والولايات المتحدة. وسأعود إلى تحليل خلفية هذا الرفض فيما بعد.

لقد انتهت الحرب الباردة، ولكن الموقف الأمريكي-الإسرائيلي تجاه القانون الدولي لم ينته بعد، فظلت القوة هي المقابل للدبلوماسية، ولحقوق الإنسان، وللأمم المتحدة^(٢٠). لقد وصل الازدراء الأمريكي-الإسرائيلي للقانون الدولي إلى أوجه، لدرجة أنه في خلال الجدل الدائر حول بنما، قام السفير الأمريكي بإعلام مجلس الأمن أن ميثاق الأمم المتحدة يسمح للولايات المتحدة باستخدام القوة «للدفاع عن مصالحنا» دون أن يشير ذلك أى تعليق!^(٢١).

لقد كان احتلال بنما عادياً، باستثناء أمرين جديدين. أما الأمر الأول، فإن الاحتلال لم يكن في إطار «الدفاع عن النفس ضد الروس»، لأن روسيا لم تعد تمثل تهديداً، كما كان من قبل، وإنما كان الاحتلال في إطار القبض على المجرم «نورييجا»، وهو نفس المجرم الذي كان معترفاً بجرائمه حينما كان محسوباً من ضمن قائمة مرتبات وكالة المخابرات المركزية، ولكنه صار مجرماً أصيلاً حينما بدأ ينتهج نهجاً مستقلاً عن الولايات المتحدة، ممتنعاً عن التعاون بالصورة الكافية مع الحرب الأمريكية ضد نيكاراغوا. أما الأمر الثاني، فيبينه نائب وزير الخارجية السابق «إليوت أبرامز» قائلاً: إنه مع زوال الردع السوفييتي، أصبحت الولايات

المتحدة أكثر استعداداً وقدرة على «استخدام القوة» للوصول إلى أهدافها، الأمر الذى نوقش كثيراً فى السابق من قبل محللى السياسة الأمريكية، بينما لم يحظ بأى اهتمام من قبل العالم الثالث^(٢٢). خلاصة الأمر، أن السياسات الأمريكية استمرت بعد نهاية الحرب الباردة، كما كانت من قبل، ولكن هذه المرة فى ظل ذرائع جديدة وقيود أقل، مما انعكس جلياً على منطقة الشرق الأوسط.

وقد استغل الرئيس جورج بوش مناسبة احتلال بنما، ليعلن استمراره فى مساعدة صديقه وحليفه «صدام حسين». وبعدها مباشرة، قدم البيت الأبيض طلبه السنوى، بخصوص ميزانية الإنتاج، إلى الكونجرس. ولم يتغير الطلب، باستثناء التبريرات والذرائع الجديدة. ففى «الحقبة الجديدة»، نصت صيغة الطلب على الآتى: «إن طلباتنا المتزايدة لاستخدام القوات العسكرية لن تكون بالضرورة متعلقة بالاتحاد السوفييتى، ولكن من المحتمل أن تكون متعلقة بالعالم الثالث» - نفس الصيغة التى كانت تُقال من قبل، لكن هذه المرة بدون استحضار التهديد السوفييتى. وكذلك رأت الصيغة أن تسهم الميزانية فى تقوية «قاعدة الدفاع الصناعية» (بما يعنى الصناعة عالية التقنية)، وفى خلق حوافز ودوافع «للاستثمار فى تجهيزات جديدة، وكذلك فى البحث والتنمية»، مع الحفاظ على الدعم الشعبى، ولكن لن يكون كل ذلك فى سبيل دحض التهديد السوفييتى، الذى لم يعد موجوداً، وإنما سيكون فى سبيل تطوير ومواجهة «التخصص التكنولوجى المتصاعد» فى العالم الثالث-الذى كانت الولايات المتحدة تسعى فى تطويره من خلال بيعها للأسلحة المتميزة الدقيقة، فى ظل الحماس المتصاعد المتوهج بعد حرب الخليج. وكذلك، كان لابد من الاحتفاظ بقوات التدخل العسكرى، التى ما زالت تستهدف الشرق الأوسط بالدرجة الأولى، لحيوية المنطقة التى يعتمد عليها العالم الحر فى جلب النفط، حيث أدت «المخاطر المصوبة تجاه مصالحنا» إلى التحامنا فى اشتباكات عسكرية مباشرة، التى «لم يعد باستطاعتنا أن نضعها على أعتاب باب الكريملن». «نحن نتوقع فى المستقبل، أن تشحذ هذه المخاطر غير السوفييتية على مصالحنا مزيداً من الاهتمام»^(٢٣). والحق يقال، إن «المخاطر على مصالحنا» كانت دائماً تتمثل فى القومية المحلية، وهو أمر معترف به داخلياً، ومعلن عنه فى بعض الأحيان.

ولم تكن هذه المخاطر موجودة على أعتاب الباب العراقي . ففي ذلك الوقت (مارس ١٩٩٠م)، كان صدام حسين صديقاً حميماً وشريكاً اقتصادياً ، وظل كذلك حتى شهر أغسطس ، عندما ارتكب أول جريمة : مخالفة الأوامر . ففقد على أثرها وضع «المعتدل» ، وهو لم يفقد هذا الوضع حينما قتل الأكراد بالغاز ، واعتقل المنشقين عنه . . إنها قصة مكررة لنوريjsا وآخرين غيره .

على كل حال ، فإنه مع سقوط سور برلين ، كان معروفاً بأن الخطر الحقيقي على مصالحنا يتمثل فى مصالح القوميات الأخرى . وكان من الآثار الحميدة لانهاء الحرب الباردة ، انقشاع السحب ، ومن ثم ظهور الحقيقة بصورة أكثر وضوحاً (٢٤) .

ولنعطى نظرة أكثر قرباً إلى الشرق الأوسط ، وكيفية وضعه فى إطار الصورة العامة . إن النظرة تجاه الشرق الأوسط على كونه «أعظم هبة مادية للتاريخ» ظلت موجودة . ولذا كانت الأولوية ، وما زالت ، تتمثل فى ضمان السيطرة الأمريكية على أثرى وأرخص الاحتياطيّات/ المخزونات النفطية فى العالم . فبعد الحرب العالمية الثانية مباشرة ، تم طرد فرنسا من الشرق الأوسط ، انطلاقاً من حجة شرعية لافتة للانتباه ، تقول : إن فرنسا كانت من الدول الأعداء ، لكونها احتلت من قبل ألمانيا ! . أما بريطانيا ، فقد سُمح لها بدور مدعم . وكما قال أحد رجال الدولة القدامى فى إدارة كينيدى : إن بريطانيا يمكن «أن تكون «ملازماً» لنا (الكلمة المتحضرة لها شريك)» (٢٥) . ولقد فضلت بريطانيا الاستماع إلى الكلمة المتحضرة ، بالرغم من إدراك الديپلوماسيين البريطانيين أن بلادهم ، بانهاء الحرب ، لن يتعدى وضعها «شريكاً صغيراً فى فضاء القوة الذى تهيمن عليه الولايات المتحدة» . وكما أوضح «إرنست بيثن» وزير الخارجية البريطانى ، معلناً عن ضجره فى مناقشة مغلقة ، أن الولايات المتحدة كانت تمارس «سياسة القوة بدون إحساس بأدنى ذنب» ، متجاهلة عن قصد «دوائر التأثير» التقليدية (٢٦) . وقد أظهرت مستندات مكتب الشؤون الخارجية بعض الأوهام حول «الإمبريالية الاقتصادية لمصالح التجارة الأمريكية ، والتى تعمل بمتهى النشاط تحت عباءة العالمية الخيرة» ، والتى «تحاول بكل قوتها إخراجنا من اللعبة» . إن الأمريكيين يعتقدون بأن «الولايات المتحدة تقف من أجل شىء ما فى هذا العالم» قالها وزير الداخلية البريطانى فى مكتب الشؤون الخارجية أمام زملائه الوزراء فى الحكومة البريطانية ، ويكمل قائلاً : «شىء

يحتاجه العالم، شىء سوف يحبه العالم، شىء سيأخذه العالم فى نهاية المطاف، سواء رغب فيه أم لم يرغب فيه» (٢٧).

ومن أجل أخذ الزمام فى إدارة الشرق الأوسط والسيطرة عليه، أخذت الولايات المتحدة الهيكل الأساسى للنظام الذى كانت بريطانيا تديره على مناهجه فى يوم من الأيام. وبمقتضى هذا النظام، كانت تسند الإدارة المحلية إلى «واجهة عربية»، مع عملية «امتصاص» للمستعمرات، «مغلقة بخيالات وابتكارات دستورية مثل ابتكار الحماية، وابتكار الحكومة العازلة، وهلم جرا» (لورد «كورزون» واللجنة الشرقية، ١٩١٧-١٩١٨م). أما الواجهة العربية، فهى لا تأخذ سوى «الشكل الخارجى للسيادة»، كما قال العضو المفوض العالى لفلسطين والأردن، موضحاً الخطوات التى اتخذت لتجنب طلب الأمم المتحدة إنهاء الاستعمار فى عام ١٩٤٦م. ولكن «جون فوستر دالاس» حذر - فى أثناء اقتباسه للنظام البريطانى - من التعرض لخطر «فقدان السيطرة» (٢٨).

إن المفهوم يعتبر إلى حد ما تقليدياً. فقد كانت نفس هذه الأفكار مصاحبة للسياسة الأمريكية فى العالم الغربى، ولسياسة الاتحاد السوفيتى فى شرقى أوروبا، ولسياسة جنوب أفريقيا فى فترة البانتوستان، وللسياسة الأمريكية والإسرائيلية فى عملية السلام الحالية. حتى المستعمرات الكاملة مثل الهند، التى كان يحكمها «الراج»، كانت أيضاً تُدار بنفس الطريقة، من خلال الواجهة المحلية.

والواجهة لا بد أن تكون فى حاجة إلى الاعتماد على الغير، ومن ثم يجب أن تكون تلك الواجهة ضعيفة. وفى الشرق الأوسط، تعتبر العائلات الديكتاتورية هى النموذج المفضل والمحبيب. وبغض النظر عن سلوكياتها الوحشية وغير الأدمية، إلا أنها تحظى بشرف واحترام، ما دامت تخدم مصالح الولايات المتحدة، وتحافظ على توجيهه وتوصيل تدفق الأرباح إلى الولايات المتحدة، وإلى شريكها البريطانى، وإلى شركات الطاقة التى يمتلكونها، وإلى مشاريع أخرى تم الاتفاق عليها. فإذا قامت هذه العائلات بمهمتها على أكمل وجه، فستكون مكافأتها الضخمة من قبل دافع الضرائب الأمريكى، الذى من المفترض أنه لا يعرف شيئاً عما تفعله هذه العائلات. ولمزيد من التوضيح، «فإن حجم الدولارات الأمريكية التى تتدفق من

الخزانة الأمريكية إلى منتجى النفط العرب قلل من حجم المعونة الأمريكية إلى إسرائيل من ١٩٥٠ إلى ١٩٧٣ م، كما قال «ديان كونز» المؤرخ الاقتصادى بجامعة «ييل»، بالرغم من أن التبرعات الأمريكية، المعتمدة على التلاعب مع الضرائب، يمكن تفسيرها كهدية من دافع الضرائب إلى شركات النفط. وبالمقارنة، فإنه حتى قبل عام ١٩٦٧ م، كانت إسرائيل تحظى بنصيب الأسد فى المعونة الأمريكية، وكان هذا النصيب يمثل ركنًا أساسيًا من رأس المال غير المسبوق، الذى كانت تتلقاه إسرائيل من الخارج، والذى كان يشكل معظم استثماراتها، كما زعم «ناداف صفران» المتخصص فى قضايا الشرق الأوسط بجامعة هارفارد. ويقدر «كونز» «التحويلات الأمريكية الخاصة إلى إسرائيل» (معظمها يتم خصمه من الضرائب فهى بمثابة معونة أمريكية) بحوالى ٣٥٪ من الميزانية السنوية لإسرائيل فى خمسينيات القرن العشرين. وقد تزايدت هذه النسبة بشكل كبير، على مر السنوات اللاحقة (٢٩).

بعد ١٩٧٣ م، تطلب الصعود الوقتى لأسعار النفط إعادة الدولارات النفطية إلى الخزانة الأمريكية من خلال مبيعات الأسلحة، والمشاريع الإنشائية، ومشاريع أخرى. . وكان هذا أحد الأسباب وراء عدم معارضة الولايات المتحدة لصعود أسعار النفط. سبب آخر تمثل فى الصعود غير العادى فى أرباح شركات النفط الأمريكية (مع صعود أسعار منتجات أخرى، من ضمنها الصادرات الأمريكية الأساسية). هذه العوامل أدت بدورها إلى فائض فى الميزان التجارى للولايات المتحدة مع أعضاء «أوبك» الشرق الأوسط (منظمة الدول المصدرة للبترول) على أرضية تجارية متوازنة، فى فترة ما بين عامى ١٩٧٤ و ١٩٧٥ م، كما أدت إلى أرباح هائلة للشركات الأمريكية، وتدفق بلايين الدولارات السعودية إلى الخزانة الأمريكية (٣٠).

وحيث إن الواجهة العربية تتسم بالضعف والطاعة، كما قلنا سالفًا، فإنها ستكون بصدد مشكلة كبيرة، وهى: تهديد القلاقل الجماهيرية الداخلية التى صارت مقتنعة بفكرة ضرورة وحتمية استفادتها من ثروات المنطقة. ومن ثم، فلا بد من حماية الواجهة من تلك «القومية الراديكالية»، الأمر الذى يتطلب قوى إقليمية تتدخل بالقوة، بمعنى آخر «رجال شرطة (محليين) مستعدين للضرب»، كما كانت

تصفهم إدارة نيكسون. وتكون هذه القوى الإقليمية، كما يفضل، غير عربية: إيران (فى ظل الشاه)، تركيا، إسرائيل، باكستان. ومن المتوقع، ومن المفهوم، أن تبقى مراكز الشرطة فى واشنطن، بينما يمكن للملازم (بريطانيا) المشاركة فى تحمل المسئولية. وكما وضع المؤرخ العسكرى البريطانى «جون كيجان»، حينما شاركت بريطانيا الولايات المتحدة فى حرب الخليج، أن البريطانيين: لديهم «شخصية قومية صلبة»، وتقليد جدير بالاحترام، فهم «معتادون، على مرقنين من الزمان، على ركوب البحار والانتقال عبر بعثات عسكرية، لمحاربة الأفريقين، والصينيين، والهنود، والعرب. إنه شىء صار معتاداً ومقبولاً لدى البريطانيين»، وهاهى المهمة الجديدة «تدق أجراماً إمبريالية شبيهة جداً بالنسبة إلى البريطانيين»، الذين طالما تفهموا أهمية «الاحتفاظ بحقهم فى قصف الزنوج»، كما ذكر رجل الدولة البريطانى المشهور «لويد جورج»^(٣١).

إن الحقوق تعطى حسب الدور الذى يلعبه الفاعلون فى النظام. أما الولايات المتحدة، فهى تمتلك حقوقاً معروفة، وبريطانيا كذلك، ما دامت «تتصرف كملازم لنا» (وليس كما فعلت فى عام ١٩٥٦م، حينما شنت هجوماً على مصر بدون أخذ الإذن، فتم طردها على الفور). باختصار، أن رجال الشرطة الإقليميين والواجهة العربية لديهم كل الحقوق، ما داموا يؤدون وظائفهم بهمة. أما أولئك الذين لا يسهمون فى تدعيم نظام القوة، فإنهم لا يمتلكون أية حقوق: الأكراد، ساكنى العشوائيات فى القاهرة، وغيرهم، من ضمنهم الفلسطينيين، الذين يمتلكون حقوقاً سلبية؛ لأن معاناتهم تسبب حالة من عدم الاستقرار. هذه الحقائق البسيطة توضح قدرًا كبيراً حول السياسات الأمريكية فى المنطقة، بما فيها عملية السلام.

وقد ألقى المثقف «إيرفينج كريستول» - ذو التوجهات المحافظة الجديدة - الضوء على بعض هذه الأمور، مشيراً أن «الشعوب غير المهمة، مثلها مثل الناس غير المهمة، يمكنها أن تتوهم بسرعة بأنها مهمة»، الأمر الذى يجب نزع بالقوة من عقولهم التقليدية: «فى الحقيقة، أن أيام «ديبلوماسية سفينة الحرب» لن تنتهى أبداً... إن سفن الحرب ضرورة بالنسبة لحفظ النظام الدولى كما تكون سيارات الشرطة ضرورة لحفظ النظام المحلى»^(٣٢). لقد تصاعد غضب «كريستول» بعدما قام الشرق الأوسط بذلك التغير المفاجئ المحدث، عندما لم يباليوا برفع أسعار

النفط، متخطين بذلك أوامر الحاكم الأعلى. ولم يكن «كريستول» وحده الذى قدم حلولاً فى كيفية التعامل مع العصيين المتمردين، ولكن كان هناك أيضاً «والتر لاكور». . وهو أيضاً مثقف بارز داخل أمريكا. وقد قدم حجته بناء على الآتى: أن نفط الشرق الأوسط «يمكن تدويله، ليس لصالح بعض شركات النفط، وإنما لصالح بقية البشرية»^(٣٣). فلماذا لم تر الشعوب غير المهمة عدالة وخيرية هذه العملية، فيمكننا حيثذا إرسال سفننا الحربية.

ولكن «لاكور» لم يقترح نفس الحل بالنسبة إلى الغرب، فهو لم يقترح تدويل الثروات الصناعية والزراعية فى الغرب «ليس لصالح بعض الشركات، ولكن لصالح بقية البشرية»، بالرغم أنه «مع نهاية عام ١٩٧٣م، وصل ثمن الصادرات لطن القمح الأمريكى إلى ثلاثة أضعاف العام السابق»، وهو مثل حى لتوضيح التصاعد المفزع لأسعار المنتجات، الذى سبق أو صاحب تصاعد أسعار النفط^(٣٤). وعلى أولئك الذين يرون تناقضاً أو تضارباً أن يتم تذكيرهم - ببساطة - بالفارق الجوهرى بين من هو مهم ومن هو عديم الأهمية.

والفلسطينيون ليسوا فقط «أناساً عديمى الأهمية»، بل هم فى الدرك الأسفل؛ لأنهم يتدخلون فى برامج ومخططات أكثر الناس «أهمية» فى العالم: النخبة الأمريكية واليهود الإسرائيليون (ما داموا يحتفظون بوضعهم ومكانتهم). «والفلسطينيون العرب هم ناس يلدون ويتزفون دماءً، ثم يروجون مأساتهم إعلامياً»، كما قالت «روث ويس» فى مجلة «اللجنة الأمريكية اليهودية»، وهى مجلة رفيعة المستوى ذات انتماءات محافظة جديدة. وتكمل قائلة: إن ذلك «يمثل المفتاح الحقيقى لنجاح الاستراتيجية العربية» فى إلقاء اليهود فى البحر، فى ظل إحياء المفهوم النازى «للكان العيش». وقد كانت «ويس» حينذاك أستاذة فى جامعة «ماك جيل»، ثم انتقلت إلى هارفارد حيث منحت كرسيًا على يد «مارتين بيريتس» الذى نصح إسرائيل فى ليلة غزوها للبنان فى ١٩٨٢م، بإلحاق «هزيمة عسكرية حاسمة» بمنظمة التحرير الفلسطينية، والتى «سوف توضح للفلسطينيين فى الضفة الغربية بأن كفاحهم من أجل دولة مستقلة قد لقى تراجعاً لسنوات عديدة». وبعد ذلك «سيتحول الفلسطينيون إلى شعب مقهور، مثل الأكراد والأفغان»، وسيتم حل المشكلة الفلسطينية التى «بدأت فى بعث الملل»^(٣٥).

لا نستطيع أن نفهم عملية السلام تفهماً كاملاً بدون وضع الوسط الثقافي ، الذى خرجت منه عملية السلام ، فى حيز الاعتبار . والوسط الثقافى لا يمثل فقط فكر المثقفين الغربيين المشهورين ، وإنما يمثل أيضاً - وبدرجة أكثر أهمية - حقيقة مرورهم مرور الكرام بدون أدنى تعليق أو تحفظ ، وكأن ما يقولونه يدخل فى نطاق الطبيعى أو العادى ، إلا أن تغيير بعض الأسماء يمكن أن يستخرج ردود أفعال مختلفة (٣٦).

يفسر المفهوم الاستراتيجى العام الإصرار الشديد على إيجاد الجهاز الضخم المسئول عن تدخلات عسكرية ضخمة تستهدف الشرق الأوسط ، الأمر الذى أوجد قواعد عسكرية ممتدة من المحيط الهادى إلى الهندى إلى الآزور . ولقد أدى كشف العلاقات الاستعمارية إلى إقامة تعديلات فى داخل النظام ، إلا أنها ليست بهذا العمق الذى يمكننا توقعه . فهناك دراسة ، أعدها الكونجرس فى ١٩٩٢م ، اكتشفت قيام واشنطن ، أو سعيها للقيام ، بـ «اتفاقيات تدخل» مع حوالى أربعين دولة (إسرائيل على رأسهم) ، كوسيلة تدخل أرخص من القواعد الأجنبية . فمع الفيليبين ، أقامت الولايات المتحدة مثل هذه الاتفاقيات ، بعد غلقها للقواعد العسكرية هناك ، حيث أعلن الأدميرال «تشارلز لارسون» أن «الفيليبين يمكن استخدامها كدرجة أو كمنصة للعمليات العسكرية الأمريكية ، إذا بادرت الولايات المتحدة بالتدخل فى تلك المناطق» (كوريا والشرق الأوسط ، حيث نجد هناك «الصراعات المخمرة»). وقد عبر وزير الدفاع الفيليبينى عن مخاوفه قائلاً : إن الفيليبين «قد تنزلق إلى حرب فى الشرق الأوسط» ، نتيجة لتلك الاتفاقيات (٣٧) .

وبالمثل ، أدت نهاية الحرب الباردة إلى تعديلات تكتيكية . ففي ذروة صراعات الحرب الباردة عام ١٩٨٠م ، قام «روبرت كومير» - وهو مهندس «قوة التعبئة السريعة» للرئيس جيمى كارتر - بالإدلاء أمام الكونجرس بأن الاستخدام الحقيقى لهذه القوة ليس هدفها مقاومة هجوم سوفيتى (وهو غير مقبول) ، وإنما هدفها التعامل مع التمرد المحلى والإقليمى («القومية الراديكالية») . وفى لحظة حرجية مماثلة ، فى ١٩٥٨م ، أخبر وزير الداخلية «جون فوستر دالاس» مجلس الأمن القومى أن الولايات المتحدة تواجه ثلاث أزمات على صعيد سياستها

الخارجية: إندونيسيا، شمال أفريقيا، والشرق الأوسط (كلها إسلامية). وأضاف أن الدور السوفييتي ليس مندرجاً في أى من هذه الأزمات، إلا أن الرئيس أيزنهاور «استثنى بقوة» بعض الدول التي يمكن أن تكون عاملة بالوكالة لحساب السوفييت.

وكان الخطر الأعظم في إندونيسيا يتمثل في الديموقراطية، كما كان في إيطاليا عام ١٩٤٨م وفيما بعد: التخوف من «عدم تمكن الوسائل الديموقراطية الانتخابية من ضرب الشيوعيين» ومن ثم كان لابد «التخلص» من الديموقراطية. وقد تم بالفعل تحقيق ذلك في السنوات التالية، وبكل نجاح، من خلال ذبح حوالي نصف مليون إندونيسي - معظمهم من الفلاحين غير المالكين - مما يظهر لمحة عن الحضارة الغربية، وهى لمحة قد تم نسيانها بالتأكيد. وفي أفريقيا الشمالية، تمثلت المشكلة في الكفاح المناهض للاستعمار، والذي تعارض مع مقصد الولايات المتحدة، في أن تندمج «دول أفريقيا الشمالية تحت الوصاية الفرنسية، في علاقات شراكة وصداقة، ستكون حصناً وحماية لدولة فرنسية قوية» (وهى نفس «الوظيفة» التي كانت المستعمرات القديمة ملزمة بأدائها من أجل «رفاهية النظام الرأسمالي العالمي» عامة). وأخيراً، تمثل الخطر في الشرق الأوسط في «القومية الراديكالية». وكما هو ملاحظ، فإن النقاط الأساسية يتم تعريفها الآن، على الملأ^(٣٨).

عمل النظام بنجاح لمدة نصف قرن، فلم يشهد سعر النفط تغيرات كبيرة في الخمسين عاماً الماضية، محققاً أدنى المستويات في عام ١٩٩٥م^(٤٠). وهنا يجب الإشارة إلى نقطتين في غاية الأهمية، أولاً: أن الولايات المتحدة لا تريد تدنى أسعار النفط؛ لأنه سيؤدى إلى تدنى الأرباح في شركات الطاقة - والتي يتمركز معظمها في الولايات المتحدة - ومن ثم إلى ضرب الأسواق المهمة في مجالات السلاح، والتشييد، وغيرهما. وثانياً: أن السعر الحقيقي للنفط يعتبر أعلى مما تعكسه الأسعار الرسمية، التي كثيراً ما تغفل عدة عناصر، منها بند الإنفاق على القوات العسكرية من أجل حفظ أسعار النفط في النطاق المقبول. وتبعاً لدراسة فنية قام بها مستشار بوزارة الطاقة، تبين أن الإنفاق المباشر يصل إلى دعم عام بنسبة ٣٠٪، الأمر الذي يؤكد في النهاية أن «النظرة الحالية حول رخص أسعار البترين ما هى إلا تخيلات وأوهام»^(٤١). ومن ثم، فإن تجاهلنا

للك الاتفاقيات غير المعلن عنها، يجعلنا نخرج بالتقديرات المزعومة لكفاءة التجارة، والاستنتاجات الخاطئة بخصوص صحة الاقتصاد ونموه.

وبالرغم من أن النظام شهد نجاحًا كبيرًا، أدى إلى ظهور «العصر الذهبي» للدولة الرأسمالية الكبرى في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، إلا أن ذلك كله لم يمنع من ظهور المشاكل. فالمشكلة الأولى تمثلت في التمرد القومى بإيران، والذي تم قمعه على الفور بانقلاب عسكري مدعوم من قبل الولايات المتحدة، والذي قام بإعادة الشاه إلى مكانه. وإذا أردنا التعرف على التفاصيل الكاملة لهذا الحدث، فلن نجد له أثرًا، خاصة بعد عملية التشويه الأرشيفي، على مدار ثلاثين عامًا، حول هذا الانقلاب، الأمر الذي أثار حفيظة المؤرخين بوزارة الخارجية الأمريكية ضد شخص ريجان، مما أدى بهم في النهاية إلى إعلان استقالتهم، اعتراضًا عما يحدث. ومؤخرًا، انكشف لنا أن مستندات المخابرات المركزية الأمريكية حول الانقلاب قد تم إفسادها «بطريقة غير ملفتة» (٤١).

وتمثلت المشكلة الثانية، حينما قامت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل بالهجوم على مصر في عام ١٩٥٦ م. وكان هذا الهجوم غير مقبول للولايات المتحدة، مبدئيًا من حيث التوقيت، كما أشار الرئيس أيزنهاور، والذي سريعًا ما أرغم هذه الدول العاقبة على الانسحاب.

وكانت هناك مشاكل أخرى مع مصر وسوريا، والتي أدت إلى محاولات كثيرة من قبل الولايات المتحدة لقلب هذه الأنظمة (٤٢). فوزير الخارجية «دالاس» وصف الرئيس جمال عبد الناصر بـ «المتطرف الخطير». لقد كان «متعصبًا» بسبب حياديته واستقلالته، وكان «خطيرًا» بسبب استحوازه على قلوب الجماهير بالمنطقة، الذين كانوا واقفين «على صف ناصر»، كما اعترف أيزنهاور، الذي أكمل قائلاً: «إن مشكلتنا هي أننا لدينا حملة من الكره ضدنا، ليس من قبل الحكومات ولكن من قبل الشعوب». استخلص مجلس الأمن القومى، أنه «فى أعين معظم العرب، تظهر الولايات المتحدة فى صورة المعارض لتحقيق أهداف القومية العربية. فهم يعتقدون أن الولايات المتحدة تسعى لحماية مصالحها النفطية بالشرق الأوسط من خلال الحفاظ على الوضع المألوف الخالى من أى تقدم، سواء كان

سياسياً أو اقتصادياً». ولقد كانت مشكلة واشنطن الأساسية تتمثل في صحة هذه الرؤية. وكما أوضح مجلس الأمن القومي، «إن مصالحنا الاقتصادية والثقافية بالمنطقة أدت طبيعياً ومنطقياً إلى توطيد العلاقات الأمريكية مع تلك العناصر العربية التي تضع إبقاءها على علاقتها مع الغرب على قمة مصالحها وأولوياتها»^(٤٣). بلغة أخرى، أنه نتيجة لأسباب متجذرة، وجدت الولايات المتحدة نفسها، في نهاية الأمر، في حلبة تصادم مع القومية المستقلة في الشرق الأوسط، كما هو الحال في بقية العالم الثالث.

ولقد تأججت هذه المشاكل كلها، ووصلت إلى الذروة في شهور لاحقة، في يوليو ١٩٥٨م، حينما حدث انقلاب عسكري بالعراق، لاغياً بالقوة النظام العميل للبريطانيين. طبعاً. أعطت ردود الأفعال الأمريكية والبريطانية صورة واضحة لمصالح ومقاصد الدولتين، كما أنها وفرت خلفية مهيأة لما حدث في ١٩٩٠م، حينما قامت العراق بغزو الكويت، مما كان له أثر كبير على عملية السلام، والذي سأعود إليه فيما بعد.

فبعد انقلاب العراق، قامت الولايات المتحدة، على الفور، بإنزال قواتها البحرية على شواطئ لبنان، وأصدرت أمراً رئاسياً يقضى بإعداد «كل ما يلزم لمنع أي قوى غير صديقة من اقتحام الكويت» (ما أكده أيزنهاور). وقد أشار «وليام كوانت» العالم المتخصص في الشرق الأوسط، والذي لديه أيضاً خلفية عن جهاز الأمن القومي، إلى كلام أيزنهاور على كونه مرجعية لاستخدام الأسلحة النووية. وقام وزير الخارجية البريطاني «سيلوين لويد» بالسفر حينذاك إلى واشنطن لأخذ المشورة. فتلقى النصيحة التالية، وهي: أن تضمن بريطانيا للكويت استقلالاً اسمياً، بينما تحتفظ في نفس الوقت بوضعها الاستعماري. البديل الوحيد الذي طُرح تمثل في احتلال بريطاني سريع للكويت، والذي سرعان ما رُفض لكونه يحمل في طياته فرصاً أكبر لردود أفعال قومية، سواء في الكويت أو في خارجها. ولكن في نفس الوقت، كانت بريطانيا في حاجة إلى إعداد نفسها «للتدخل بشراسة» في حالة حدوث أي خطأ، وبغض النظر «عن يتسبب في وقوع الخطأ» - القوميون الكويتيون، على سبيل المثال. وقد اتخذت واشنطن نفس الوضع تجاه

السعودية وإمارات الخليج الفارسي، موقنة ومؤمنة بأنه «على حساب كل شيء، لا بد من وضع هذه الحقول النفطية (في الكويت، السعودية، البحرين، وقطر) في الأيدي الغربية»، كما أخبر «لويد» لندن من خلال برقيته^(٤٤).

وكانت الكويت من نصيب بريطانيا. أما الولايات المتحدة - الشريك الأول - فكانت مسئولة عن باقي الدول في منطقة الشرق الأوسط. وكانت واشنطن معترفة بضرورة اعتماد الاقتصاد البريطاني، وبشدة، على ثراء المنطقة، ومن ثم رأت ضرورة استعداها «لمساندة أو مساعدة، إذا استلزم الأمر، البريطانيين في استخدام القوة للاحتفاظ بالسيطرة على الكويت وعلى الخليج الفارسي»^(٤٥). وفي عام ١٩٩٠م حدث تغير كبير، حيث انتقلت سلطات أكبر من الأيدي البريطانية إلى الأيدي الأمريكية.

من المهم أن نأخذ المصطلحات الفنية في الاعتبار: فهدف الولايات المتحدة وبريطانيا تمثل أساساً في الاحتفاظ بالسيطرة على المناطق المنتجة للنفط، وليس الدفاع عنها. وبينما كان الخطر المعلن هو الخطر السوفييتي إلا أن المستندات الداخلية كانت توحى بغير ذلك. فالخطر الحقيقي في المنطقة كان يتمثل في القومية الراديكالية.

وفي يناير ١٩٥٨م، ذهب مجلس الأمن القومي الأمريكي إلى الخلاصة التالية: إن «الملازم المنطقي» ضد المعارضة القومية العربية المتصاعدة يمكن أن يتمثل في تأييد إسرائيل باعتبارها القوة الوحيدة في منطقة الشرق الأوسط، التي تؤيد الغرب بشدة»^(٤٦). وبالرغم مما يبدو لنا من مغالاة حول هذا الأمر، إلا أنه يؤكد لنا الخط العام للتحليل الاستراتيجي، الذي يُعرف القومية المحلية كتهديد يأتي في المرتبة الأولى، كما هو الأمر في العالم الثالث بأسره - وخاصة في أمريكا اللاتينية وجنوب شرق آسيا^(٤٧). وكذلك أكد تحليل مجلس الأمن القومي ما ذهب إليه فريق الأركان في عام ١٩٤٨م، الذي كان منبهراً بقوة الجيش الإسرائيلي، والذي اقترح بأن تكون إسرائيل هي القاعدة المناسبة للقوة الإسرائيلية في المنطقة، بعد تركيا.

لقد أدى تجاهلنا للسجلات الداخلية، وتجاهلنا لتوقيت الأحداث، وتجاهلنا للتشابه بين السياسات في مختلف دول العالم، إلى الإخفاق في قراءة قوة دفعها

الحقيقية، ومن ثم الخروج بتفسيرات مريبة ومشكوك فيها، حول التطورات الحالية . وكانت إحدى القراءات النمطية، أن «الصراع العربي-الإسرائيلي تم شحنه من قبل الحرب الباردة، حيث كانت الولايات المتحدة تنظر إلى إسرائيل باعتبارها الحليف الذى يمكن أن تعتمد عليه ضد بعض الأنظمة العربية التى كان الاتحاد السوفيتى يساندها». لقد أخذت هذه العبارة من تحليل إسرائيلى «ما بعد صهيونى» ، معروف بلهجته النقدية اللاذعة للتفسيرات النمطية، إلا أنه فى هذه الحالة لم يكن ناقدًا بالصورة المتوقعة. صحيح أن هذه العبارة ليست خاطئة حرفيًا، إلا أنها تحمل فى طياتها ما يُساء فهمه، وما يساء تقديره^(٤٨). نرى مثلاً أن تأييد «رجال الشرطة المحليين المستعدين للضرب» - إسرائيل، جنوب أفريقيا، وغيرهما- كان ينظر إليه دائماً «كلازمة منطقية» لمعارضة القومية المحلية فى المناطق الخدمية (المناطق التى تخدم مصالح الولايات المتحدة). عادة ما تتجه الدول المعرضة للخضوع أو الهجوم عليها إلى الاتحاد السوفيتى لمعاونتها، وفى بعض الأحيان للحصول على استقلالها، بنفس الطريقة التى توجهت بها الجماعات الإسلامية المتطرفة فى أفغانستان إلى الولايات المتحدة للحصول على تأييدها ضد العدوان السوفيتى . ومن ثم، فعلينا الاحتراس جيداً من خلط السبب مع النتائج، أو إساءة تفسير تطور ما يتعلق بالحرب الباردة.

ما أراه أكثر دقة، فى رأى الشخصى، هو تفسير الرئيس السابق للمخابرات العسكرية الإسرائيلية، الجنرال «شلومو جازيت» ، حيث كتب بعد انهيار الاتحاد السوفيتى قائلاً: إن مهمة إسرائيل الأساسية لم تتغير على الإطلاق، فهى باقية على أهميتها وضرورتها الحاسمة . فموقعها فى مركز الشرق الأوسط العربى المسلم يقدر لها بأن تكون حارساً للاستقرار فى جميع الدول المحيطة بها. (دورها) يتمثل فى حماية الأنظمة القائمة: من خلال منع أو وقف العمليات الراديكالية، ومنع توسع أى حماس أصولى دينى^(٤٩).

إن التحمس الدينى لا يمثل أى مشكلة ما دام يتواجد فى إطار منضبط (كما فى السعودية، أفغانستان، أو حتى الولايات المتحدة نفسها التى تظهر فى أعلى قائمة الحماس الأصولى الدينى)، ولكنها تصير «قومية راديكالية» غير مقبولة، إذا تخطت

الحدود، سواء طلبت الدعم الخارجى أم لا . من خلال هذه الأسس الموثقة بالمستندات والسجلات التاريخية، يمكننا فهم الطابع المنهجى للسياسة الأمريكية، وحمية استمراره، حتى بعد خروج الاتحاد السوفيتى من الساحة .

منذ أربعين عاماً ، كان هناك تخوف من انتقال العدوى الناصرية إلى أنحاء المنطقة العربية ، لقد وصلت حدة التخوف - فى بداية الستينيات - إلى الاعتقاد بأن هذه العدوى يمكن أن تصيب المملكة السعودية نفسها . إلا أن الانتصار العسكرى الإسرائيلى فى ١٩٦٧م حول كل هذه التخوفات إلى خبر كان، جاعلاً إسرائيل تحظى بوضع «امتياز استراتيجى» ، وكذلك مروجاً لها فى وسط المثقفين الأمريكيين ، الذين كانوا منبهرين بذلك الاستخدام الفعال للقوة ضد أناس غارقين فى «أوهام وخيالات العظمة» - وهو لم يكن موضوعاً بسيطاً خاصة فى ظل تلك الأعوام العصيبة التى كانت واشنطن تكابدها مع فيتنام^(٥٠) .

وكانت النتيجة متوقعة ، كما هو الحال دائماً . فقد تم ترجمة «اللازمة المنطقية» إلى أداة سياسة . . . أساسية . فكان من ضمن هذه الأداة ، أن تزايد التأييد الأمريكى بغزارة ، على الصعيدين الدبلوماسى والعسكرى ، لدولة إسرائيل فى ١٩٧٠م ، وهو تزايد متكرر لما كان يحدث دائماً . ومن هنا ، كان تمكن إسرائيل من ردع أى تدخل سورى فى الأردن يهدف إلى تأييد الفلسطينيين ، حيث كانت الولايات المتحدة ترى أن أى إمكانية للتدخل سوف تهدد الواجهة العربية . ومع بداية السبعينيات ، بدأ هناك تحالف إسرائيلى إيرانى يظهر فى الأفق ، تحالف بين دولتين كانتا تعتبران الشرطين الأساسيين فى ظل العقيدة النيكسونية الجديدة . وقد وصف «هنرى جاكسون» - السيناتور المتخصص فى سياسات الشرق الأوسط والنفط - هذين الشريكين «كصديقين يمكن للولايات المتحدة التعويل عليهما» ، حيث شاركوا السعودية فى «إحباط وإخماد تلك العناصر الراديكالية غير المسئولة فى دول عربية بعينها . . . التى كان بإمكانها ، إذا واتتها الفرصة ، أن تشكل خطراً كبيراً على مصادرها الأساسية للبترول فى الخليج الفارسى» - تلك المصادر التى احتاجتها الولايات المتحدة كاحتياطى لها ، وكمساعدة لها للهيمنة على العالم ، وأخيراً كدافع لإنتاج تلك الثروات الأمريكية الضخمة^(٥١) . لم يكن الصراع السابق بين السعودية وبين إيران وإسرائيل إلا صراعاً تكتيكياً ، كما كانت معارضة الشاه الإيرانى للسياسات الإسرائيلية . . معارضة كلامية .

ومع سقوط الشاه في ١٩٧٩م، تنامت أهمية دور رجل الشرطة الإسرائيلي في المنطقة. وبعد فشل مبعوث الرئيس كارتر، «جنرال روبرت هويسر»، في إشعال انقلاب عسكري بإيران، تكاثفت كل من الولايات المتحدة وإسرائيل والسعودية، محاولين إحياء الحلف الثلاثي، مع تمويل السعودية لمبيعات الأسلحة الأمريكية، عبر إسرائيل، إلى عناصر الجيش الإيراني، الذي كانت الأطراف الثلاثة تضع عليه أملاً كبيراً لقلب نظام الحكم الإسلامي الجديد. وقد تم التصريح بهذه الأهداف، بوضوح مطلق في ذلك الوقت، على لسان «يوري لوبراني» (السفير الإسرائيلي في إيران وقت حكم الشاه) و«موشيه أرينز» (السفير الإسرائيلي في الولايات المتحدة في إيران حينذاك) وآخرين غيرهما^(٥٢).

وفي ذلك الوقت، كانت إسرائيل تقدم خدمات ثانوية إلى عملائها في أفريقيا وآسيا، وفي أمريكا اللاتينية خاصة، حيث كانت واشنطن ممنوعة من تقديم أي دعم مباشر لأي من أولئك الطغاة والقذلة، حسب تشريعات الكونغرس المتعلقة بحقوق الإنسان. ومن ثم، لجأ كارتر، ومن بعده الريجانيون في الثمانينيات، إلى إسرائيل للقيام بهذه المهام الممنوعة، كجزء من الشبكة الدولية للإرهاب، والتي شملت أيضاً تايوان، وبريطانيا، والنازيين الجدد بالأرجنتين، وغيرهم... عادة في ظل التمويل السعودي. وكان تعاون إسرائيل في تطوير السلاح، واختباره تحت ظروف القتال، أمراً آخر يصب في مصلحة واشنطن، هذا إلى جانب التدريبات الثنائية الإسرائيلية الأمريكية، وعمليات التخطيط للطوارئ، وإنشاء مرافق للأسطول الأمريكي، وغيرها من الأمور التي كانت تُنفذ جميعها في نطاق المفهوم الاستراتيجي العام، وليس في نطاق مفهوم الحرب الباردة. ومن ثم، فإن السياسة الأمريكية استمرت بدون تغيير ملحوظ، وقد تم إقرار ذلك من خلال شهادة الشناجرون أمام الكونغرس، ومن خلال كتابات المحللين الاستراتيجيين المختصين بالعلاقات الأمريكية الإسرائيلية. ومن ضمن هذه الكتابات، التحليل الذي قدمه «دور جولد»، الزميل المقرب لـ «بنيامين نتياهو»، واصفاً الدور الإسرائيلي بالقوة المتدخلة في «السيناريوهات غير السوفيتية» - أي ضد «القومية الراديكالية» - ومن ثم «توسيع حيز الاختيارات الأمريكية»^(٥٣).

ولنتقل إلى المستندات الدبلوماسية، والتي تُفهم بوضوح في ظل الإطار الذي

قمنا ببنائه تدريجيًا^(٥٤). فبعد حرب ١٩٦٧م، قامت الدول الكبرى بإخراج قرار الأمم المتحدة ٢٤٢، كإطار أساسى للتسوية الدبلوماسية، منادياً إسرائيل بالانسحاب من الأراضي المحتلة فى مقابل اتفاقية سلام بين إسرائيل والدول العربية.

وبالرغم من عدم وفرة المستندات الأرشيفية بالشكل الكامل، إلا أنه ظهر ما يكفى - من خلال تسرب تاريخ الخارجية الأمريكية، وغيره - ليدعم ويرسخ فكرة أن الولايات المتحدة فهمت قرار الأمم المتحدة ٢٤٢ على كونه قراراً يطالب بالانسحاب الإسرائيلى الكامل حتى حدود ما قبل الحرب، مع بعض التعديلات البسيطة، وقد تم إعلان هذا الموقف الأمريكى، رسمياً، فى «مشروع روجرز» عام ١٩٦٩م^(٥٥). بلغة أخرى، أن التفسير الأمريكى لقرار ٢٤٢ تلخص فى الآتى: انسحاب كامل فى مقابل سلام كامل. ولكن لا الدول العربية قبلت بالسلام الكامل، ولا إسرائيل قبلت بالانسحاب الكامل، حيث ركنت إلى «مشروع ألون» فى عام ١٩٦٨م، وهو المشروع الذى خاض تعديلات عديدة عبر السنوات التالية. أما اتفاقيات أوسلو، فقد وضعت الخطوط الأساسية لنسخة معاصرة، تخللتها تغييرات طفيفة، كلما تأرجح الوضع بين حكومات «العمل» و«الليكود» بتحالف كل منها.

ولنلاحظ معاً، أن قرار ٢٤٢ يمثل رفضاً صريحاً لأى حق فلسطينى فى تقرير المصير. وهى نقطة جديرة بالاعتبار، لكونها ستساعدنا، فيما بعد، فى فهم وإدراك عملية السلام التى تُدار تحت الرعاية الأمريكية.

إلا أن المأزق، فى اجتياز هذا القرار، تبدد تماماً فى فبراير ١٩٧١م، عندما قبل الرئيس المصرى «أنور السادات» باقتراح «جونار يارنج» (وسيط الأمم المتحدة حينذاك)، والذى قضى بالتالى: الموافقة على السلام الكامل مع إسرائيل فى مقابل الانسحاب الإسرائيلى إلى حدود مصر-إسرائيل قبل الحرب^(٥٦). ولكن حتى هذا الاقتراح، لم يكن إلا امتداداً واستمراراً لسياسة الرفض المطلق، التى تأبى أن تعطى أية حقوق، من فلسطين السابقة، لطرف من الطرفين المتنازعين. فالأقتراح، فى النهاية، لم يخرج عن نطاق العلاقات الإسرائيلية-المصرية. وقد رحبت

إسرائيل رسميًا بهذا الاقتراح، واصفة إياه بعرض حقيقى للسلام. وفى مذكراته، وصفه «إسحاق رابين» «بعلامة أساسية» على طريق السلام^(٥٧).

وكان رد الفعل الإسرائيلى متضمنًا فى تقرير، أعده «يوسى بيلين» من خلال مراجعته المتأنية للمستندات الحكومية الداخلية. فبعد أيام قليلة من «عرض السادات»، انعقد اجتماع رفيع المستوى، انتهى بعدم الموافقة على هذا العرض. فاقترح «أبا إيبان» موافقة مشروطة، تقضى «بانسحاب القوات الإسرائيلية من خط وقف إطلاق النار مع مصر إلى حدود آمنة ومعترف بها، يتم ترسيخها فى اتفاقية السلام»، وليست الحدود التى فرضها قرار ٢٤٢ ولا مذكرة «يارنج». أما «إسرائيل جليلى» مستشار «جولدا مائير»، فقد رفض الأمر برمته، قائلاً إن «إسرائيل لن تنسحب إلى حدود ما قبل ٥ يونيو ١٩٦٧ م». وقد وافق «موشيه ديان» و«إسحاق رابين» على ما قاله «جليلى»، واستطاعا بدورهما إقناع الحكومة الإسرائيلية بقبول مقولته. وفى ظل هذا الوضع، أبدت الأردن رغبتها فى التسوية، فى الفترة ١٩٦٧-١٩٧٣ م، من خلال «اجتماعات سرية مباشرة بين أرفع مستويات القيادة فى الأردن وإسرائيل»، ومن خلال طرق أخرى. وعلى حد زعم «بيلين»، فإن «جليلى» نفسه «لم يكن ينكر إمكانية تسوية سلمية، على أساس حدود ٤ يونيو ١٩٦٧ م»^(٥٨).

ومن خلال تبنى صيغة «جليلى»، رفضت إسرائيل عرض السادات، مفضلة بذلك «التوسع» عن «السلام». وهامى كلمات الجنرال (المتقاعد) «حاييم بارليف» من حزب العمل، الذى كان حاكمًا حينذاك:

أعتقد أنه بإمكاننا الحصول على تسوية سلمية، اعتمادًا على الحدود السابقة (قبل يونيو ١٩٦٧ م). إذا كنت مقتنعًا بأن هذا هو الحد الأقصى الذى بإمكاننا الوصول إليه، فسأقول ساعتها: موافق. ولكنى أعتقد بأن هذا ليس هو الحد الأقصى. وإنما علينا الاستمرار فى الامتناع والتمهل، حتى نحصل على المزيد.

وأضاف «عزرا فايetsمان» أنه إذا كانت إسرائيل قد قبلت بقرار الأمم المتحدة ٢٤٢، كما فسرتة الولايات المتحدة والدول الكبرى الأخرى، لما استطاعت «التواجد حسب ما هى عليه الآن من المساحة، الروح، ونوعية الحياة»^(٥٩). وكتب

المعلق الإسرائيلي «أموس إيلون»، بعد عشر سنوات، قائلاً: إن السادات قد تسبب بالفعل في إحداث «ورطة» للقيادة السياسية الإسرائيلية، وذلك حينما أعلن عن رغبته في «الدخول في اتفاقية سلمية مع إسرائيل، وفي احترام استقلاليتها وسيادتها في إطار (حدود آمنة ومعترف بها)»^(٦٠). وكما حدث في الحالات الأخرى، فقد تم التغلب على هذه «الورطة» برباطة الجأش، وثبات النفس. وفي بعض الأحيان، بدا اللجوء إلى العنف أكثر مناسبة، كما حدث في أثناء احتلال لبنان، عندما سعت إسرائيل إلى القضاء على النهج الاعتدالي لمنظمة التحرير الفلسطينية، والذي كان يجسد خطراً و«كارثة حقيقية» للحكومة الإسرائيلية. فسعت إلى دفع منظمة التحرير، المتأججة بالسلاح، إلى «العودة لعهدا السابق من الإرهاب»، ومن ثم «تفويت وإبغاد خطر» المفاوضات، كما أشار المؤرخ «يهوشوا بوراث» بعيد الاحتلال، وهو حكم يجده تأييد على أرضيات أخرى^(٦١).

لقد اختارت إسرائيل، في عام ١٩٧١م، المواجهة العسكرية الإرهابية، ولم تختبر إمكانياتها في الاقتراب من تسوية دبلوماسية سلمية. من الممكن أن نتجادل بشأن أهلية هذا الاختيار، ولكن في النهاية لن نستطيع إلا القول بأن الاختيار قد تم بالفعل. وبرر «بارليف» هذا الخيار في كلمات وجيزة: إن الاعتماد على القوة، وليس الاعتماد على الدبلوماسية، سمح لإسرائيل «الحصول على الأكثر» تحت مظلة العملية السلمية.

ومما لا شك فيه، أن عرض السادات للسلام قد وضع الولايات المتحدة في موقف لا تحسد عليه. فبينما كان موقف مصر متمشياً مع الموقف الرسمي الأمريكي، لم يكن الموقف الإسرائيلي متمشياً على الإطلاق، الأمر الذي أثار جدلاً واسعاً في داخل الإدارة الأمريكية... فإصرار الخارجية على الموقف السابق من ناحية، وتأيد «هنري كيسنجر» (مستشار الأمن القومي الأمريكي) لما أسماه بالـ «مأزق» من ناحية أخرى: لا مفاوضات ولا دبلوماسية، وإنما الاعتماد على القوة. وقد أعطى «كيسنجر» أسباباً ومبررات في مذكراته، ولكنها بدت في غاية الغرابة وعدم التحضر، لدرجة أنه بإمكاننا تجنبها تماماً (وهي يتم تجاهلها عامة في الأدبيات العلمية المتخصصة)^(٦٢). ولم ينتظر «كيسنجر» طويلاً، فسرعان ما وصل إلى الخارجية الأمريكية، متمكناً من إبعاد عدوه وغريمه اللدود «وليام روجرز».

وعلى هذا الأساس ، قامت الولايات المتحدة ، تبعاً ، بتغيير رؤيتها وتفسيرها لقرار ٢٤٢ ، سامحة - من خلال ذلك - بانسحاب جزئى فقط ، ذلك الانسحاب الذى يحدده كلٌّ من الولايات المتحدة وإسرائيل ، فقط . . . مما لا يثير العجب أو الاندهاش ، فالقوة الأمريكية أضحت تمثل المعنى الفعّال لقرار ٢٤٢ منذ ١٩٧١ م . ويعتبر هذا نقطة تحول أساسية فى دبلوماسية الشرق الأوسط ، وهى حالياً ذات أهمية كبيرة . فمنذ ذلك الوقت ، والولايات المتحدة تسد الطريق أمام كل مبادرة دبلوماسية معتمدة على قرار ٢٤٢ ، الأمر الذى عرضها هى وإسرائيل إلى عزلة دبلوماسية كاملة .

بل إن العزلة الأمريكية-الإسرائيلية ازدادت حدة فى منتصف السبعينيات ، عندما انتقل الإجماع الدولى برمته نحو الاعتراف بالحقوق الفلسطينية . وقد اعترفت قرارات الأمم المتحدة بتلك الحقوق ، وأضافتها إلى قرار ٢٤٢ ، ولكن فى خضم العملية الدبلوماسية ، وليس فى خضم «العملية السلمية» التى تعارضها الدولة المهيمنة بشدة . وقد وصل هذا الأمر إلى مجلس الأمن فى يناير ١٩٧٦ م من خلال قرار ، متضمناً لصيغة القرار ٢٤٢ ، ولكن فى نفس الوقت متخلياً عن سياسة الرفض المطلق للحقوق الفلسطينية ، داعياً الآن إلى دولة فلسطينية بجانب إسرائيل . أيد العالم بأسره هذا القرار ، الدول العربية الكبرى ، منظمة التحرير الفلسطينية ، أوروبا ، دول عدم الانحياز ، والاتحاد السوفيتى ، الذى كان يمثل الاتجاه العام للدبلوماسية الدولية . وتبعاً للسفير الإسرائيلى بالأمم المتحدة «حايم هيرتزوج» ، والذى عين رئيساً فيما بعد ، فإن منظمة التحرير الفلسطينية لم تؤيد فقط هذا المخطط ، بل «أعدت» له أيضاً (٦٣) .

رفضت إسرائيل حضور جلسة الأمم المتحدة . بل ، إنها ردت بقصف لبنان مرة أخرى ، لتقتل أكثر من خمسين قروياً فى ظل ما أسمته الضربة «الوقائية» ، مما يُتوقع أن يكون انتقاماً من دبلوماسية الأمم المتحدة . وطبعاً . . بالمعايير الغربية ، لا تعد تلك الممارسات واقعة أو مدرجة تحت «وباء الإرهاب الدولى» .

وأما الولايات المتحدة ، فقد استخدمت حقها فى القيتو بشأن القرار ، الأمر الذى كثرته فى ١٩٨٠ م . فمنذ منتصف السبعينيات ، والولايات المتحدة مصرة على منع

جميع المبادرات، سواء الآتية من قبل الأمم المتحدة، أوروبا، الدول العربية، الاتحاد السوفييتي، أو منظمة التحرير الفلسطينية، مع تصاعد حدة المنع منذ بداية الثمانينيات. وبالرغم من القيتو الأمريكي لمجلس الأمن، إلا أن الجمعية العامة للأمم المتحدة استمرت في إصدار تلك القرارات في اجتماعاتها السنوية، وسط ترحيب وتأييد واسع من ناحية، ومعارضة وازدراء أمريكي-إسرائيلي من الناحية الأخرى، وهو مشهد يتكرر في أمور كثيرة أخرى، ولا يقتصر على الحقوق الفلسطينية. وكان آخر تصويت بخصوص هذا الأمر في ديسمبر ١٩٩٠م (١٤٤ - ٢)، وهو - بالمناسبة - تاريخ في غاية الأهمية.

والحقيقة، أن ما ذكرناه عاليًا لم يرد في صفحات التاريخ، فقد تم تجاهله عنوة من قبل وسائل الإعلام، ودور الثقافة، ودور البحث وحوارات وأعمال المثقفين والباحثين. فتصوير الولايات المتحدة على كونها رائدة لجهة الرفض، لا يمكن استيعابه ولا امتصاصه من قبل ثقافة الفكر أو العقل. ومن ثم، تم إعادة كتابة التاريخ - وهو أمر جدير بالاعتبار والتقدير... وقد اطلعت على ذلك التاريخ المعدل المُعاد^(٦٤). فقبل ذلك، كانت الحقائق تختفي دائمًا في ثنايا الأدبيات المهمشة المنشقة، وقلما وجدناها في غير ذلك.

والأمر اللافت للانتباه، بل الأكثر الغرابة، أن تُمحى هذه الحقائق من مذكرات القادة الإسرائيليين - فمثلاً يقول «موشيه ديان»، المعروف بواقعيته، في حوار سري، في نوفمبر ١٩٧٦م، «هناك أمل حقيقي في أن ترغب مصر في سلام معنا» في يوم من الأيام، كما يمكن لدول عربية أخرى أن تتولد لديها نفس الرغبة. وتلك الردود يمكن أن تكون أمارة أو علامة عن «الورطة» التي وصفها «إيلون»، في أثناء حديثه عن مخاطر التسوية الدبلوماسية، التي كانت سوف تهدد «الحكم الدائم» على الأراضي، الذي كان يتوقعه «ديان» في أثناء خدمته كوزير للدفاع بحكومة العمل، قبل ١٩٦٣م^(٦٥). وبعد رفض عرضه في ١٩٧١م، قام السادات بعدة محاولات لجذب انتباه واشنطن. فمن بين مبادراته، قيامه بطرد الخبراء الروس، ومن ثم «التخلي عن نية مصر في تدمير الواقع الصهيوني»، كما قال «ديان» في نفس الحوار^(٦٦).

بل إن السادات قد هدد بالحرب، إذا استمرت كلٌ من الولايات المتحدة وإسرائيل في رفض التسوية السلمية. ولهذا، كان الدبلوماسيون الأمريكيون بمنطقة الشرق الأوسط، ورجال الأعمال، وغيرهم، يضغطون دائماً على «كيسنجر» لأخذ هذه التهديدات بجدية، وعدم الاستهانة بها، إلا أنه لم يبال بها، وأصر على إلقائها وراء ظهره، لقناعته بالافتراضات القائمة والغالبة حول هيمنة الجيش الإسرائيلي: ومنها مثلاً أن الجيش الإسرائيلي يقف على قدم المساواة مع بريطانيا وفرنسا، وأنه بإمكانه على الفور احتلال المنطقة من الخرطوم إلى بغداد إلى الجزائر، إذا استلزم الأمر (الجنرال آريل شارون)، وأنه «سيضع وجوه العرب في الوحل» إذا نسوا تلك الحقيقة (الراديو الإسرائيلي)، وهي أن «الحرب ليست لعبة العرب» (٦٧).

وجاءت حرب ١٩٧٣م، لتبديد كل هذه الافتراضات العنصرية. فقد أيقن «كيسنجر» أن مصر ليست بالدولة التي يمكن تجاهلها بهذه البساطة. وكان الخيار المفضل، بعد الحرب مباشرة، هو إخراج مصر من الصراع، وهي سياسة بلغت ذروتها في اتفاقيات كامب ديفيد لعامي ١٩٧٨ و ١٩٧٩م، الأمر الذي ترك لإسرائيل مطلق الحرية في ضم الأراضي المحتلة، وفي الهجوم على لبنان، وهو ما كانت تشترط في عمله، قبل خروج مصر من الصورة. وكان هذا واضحاً ساعتها، مثل ما هو واضح الآن على المستوى العام، فالمحلل الاستراتيجي الإسرائيلي «آفير يانيف»، مثلاً، يرى أن تأثير «الارتداد المصري» كان بهدف «إطلاق حرية» إسرائيل «لكي تدعم عملياتها العسكرية ضد منظمة التحرير في لبنان، وفي نفس الوقت دعم جهود التسوية على الضفة الغربية» (٦٨). وفي الواقع، كما يوضح «إيبان»، فإن العمليات العسكرية، منذ أوائل السبعينيات، كانت معتمدة على استهداف المدنيين اللبنانيين على الدوام، على اعتبار أن «يقوم السكان (اللبنانيون) الواقعون تحت تأثير تلك العمليات، بممارسة الضغوط في سبيل وقف العداءات» ومن ثم، قبولهم للترتيبات الإسرائيلية للمنطقة. وكان دفاع «إيبان» عن الإرهاب الدولي رد فعل للرواية التي قدمها رئيس الوزراء «مناحم بيجين» حول العمليات الوحشية التي تمت في لبنان تحت مظلة حكومة العمل، فهي عمليات، كما يقول «إيبان»، تماثل انتهاكات «أنظمة لا يقبل الأستاذ بيجين ولا أنا ذكر اسمها» (٦٩).

أما مبادرات السادات لعام ١٩٧٧م، فقد تلقت ترحيباً ، أدى في النهاية إلى تحويله بطلاً من أبطال التاريخ، و«رجل سلام» . . . هذا بالرغم من أن مبادراته لاقت تأييداً أقل، من جانب إسرائيل، عن عرضه السابق في ١٩٧١م، أو «علامة الطريق الشهيرة» التي تناساها الجميع . فبخلاف عرضه في ١٩٧١م، طالب السادات في مبادرات ١٩٧٧م بحقوق فلسطينية، متماشياً مع الإجماع الدولي الذي بدأ يراجع نفسه بشأن القضية الفلسطينية . وكان السبب الحقيقي وراء اختلاف ردود أفعاله هو : حرب ١٩٧٣م .

وعلى نهاية الثمانينيات، صار التشدد الأمريكي - الإسرائيلي محل نقد وتهكم وسخرية . فجاءت الانتفاضة، مهددة السيطرة الإسرائيلية على الأراضي، وأضحت واشنطن، في نهاية عام ١٩٨٨م، موضع سخرية العالم، نتيجة لجهودها المضنية والمتصاعدة في عدم سماع أى مبادرات دبلوماسية، سواء من منظمة التحرير الفلسطينية أو من غيرها، الأمر الذي أوصل وزير الخارجية «جورج شولتز» إلى إعلان استسلامه، على شهر ديسمبر . وهنا قامت واشنطن بالإعلان - بلهجة كلها غيظ وتذمر - عن «الانتصار» الذي حققته منظمة التحرير الفلسطينية، حيث تراجعت أخيراً عن موقفها الثابت، الذي كانت تصر عليه دوماً ، واستسلمت للأمر الواقع، وتفوهت «بالكلمات السحرية» التي عبّرت عن هذا التراجع . وطبعاً ، واشنطن لم تكن تستطيع تجاهل هذا التغير أكثر من ذلك . ومن ضمن مذكرات «شولتز» ، وصفه استسلام عرفات بشكل مذرى ومهين، ينطبق على «الأناس غير المهمين» ، فيقول : إن عرفات يمكنه أن يتهته بنصف الكلمة في مكان، ثم يتهته بالنصف الثاني في مكان آخر، ولكنه لا يستطيع أبداً أن يقول الكلمة كلها في مكان واحد^(٧٠) .

وأعلنت واشنطن، فيما بعد، أنها ستكافئ منظمة التحرير الفلسطينية، على سلوكها الرائع المفاجئ، من خلال السماح لها بالدخول في «حوار» مع الولايات المتحدة، كتكتيك مؤجل . وبالفعل، تم تسريب ونشر بروتوكولات أول لقاء في مصر وإسرائيل، في وسط تهليل كبير، حول نقطة «تبنى الممثل الأمريكي للمواقف الإسرائيلية» . إلا أن السفير الأمريكي «روبرت بليترو» أقر بشرطين أساسيين، من أجل دفع هذا الحوار إلى الأمام، والحفاظ عليه : أولاً ، على منظمة التحرير التخلي

عن فكرة المؤتمر الدولي، وثانيًا، أن توقف «التمردات» في الأراضي المحتلة (الانتفاضة)، «التي نراها كممارسات إرهابية ضد إسرائيل»^(٧١). باختصار، على منظمة التحرير إرجاع الوضع إلى ما كان عليه قبل الانتفاضة، لكي تتمكن إسرائيل من مزاوله توسعاتها وقمعها في الأراضي، تحت مظلة الولايات المتحدة.

وكان إلزام منظمة التحرير بالامتناع عن المؤتمرات الدولية، منطلقًا ونابعًا من عدم رغبة العالم في تبني الرفض الأمريكي في ذلك الوقت. وكما كان «هنري كيسنجر» يوضح، فقد خططت مساعييه الدبلوماسية «على أساس ضمان عدم تطفل الأوروبيين واليابانيين في الدبلوماسية المتعلقة بالشرق الأوسط» (وكذلك «عزل الفلسطينيين»، و«كسر جبهة العرب الموحدة»، ليتسنى لإسرائيل «التعامل باستقلالية مع كل من جيرانها»)^(٧٢).

وبخصوص الشرط الثاني، الذي طرحه «بليترو»، فقد أقرت الجمعية العامة للأمم المتحدة قراراً في عام ١٩٨٧م، ينكر «الإرهاب حيثما كان، وأياً من ارتكبه»، وهو القرار الذي لم تقبله الولايات المتحدة ولا إسرائيل. وهو ينص على التالي:

لا يوجد في هذا القرار ما يستطيع التمييز أو التحايل، بأي شكل ما، ضد حق تقرير المصير، الحرية والاستقلال، كما هو مأخوذ عن ميثاق الأمم المتحدة، لأناس حرموا بالقوة من ذلك الحق...، خاصة أولئك الناس القابعين تحت أنظمة احتلالية وعنصرية، واحتلال أجنبي، أو أصناف أخرى من الهيمنة، ولا... حق هؤلاء الناس في الكفاح للوصول إلى هذه الغاية، والسعى للحصول على التأييد [تماماً مع ميثاق الأمم المتحدة ومبادئ أخرى في القانون الدولي].

وبجانب رفض الولايات المتحدة وإسرائيل لهذه الحقوق، فكانت هناك أيضاً جنوب أفريقيا، الدولة الحليفة لهما. ومن ثم، مضى القرار (١٥٣ - ٢) بمعارضة الولايات المتحدة وإسرائيل، وامتناع هوندوراس وحدها عن التصويت. وبالرغم من ذلك، استخدمت الولايات المتحدة حق القيتو، واعترضت على القرار (لم تسجل الحادثة، كالمعتاد، وتم حظرها في كتب التاريخ). ولأسباب مشابهة، رفضت الولايات المتحدة إعلان مؤتمر فيينا عن حقوق الإنسان في عام ١٩٩٣م، وهو «أن أي احتلال خارجي يمثل انتهاكاً لحقوق الإنسان»، والذي لم يسجل

بالمثل^(٧٣). وعلى أساس هذه الافتراضات، تصير الإضرابات فى الأراضى المحتلة «أعمالاً إرهابية ضد إسرائيل».

وفى فبراير ١٩٨٩م، عقد «إسحاق رابين» لقاءً مع قادة «السلام الآن»، حيث عبّر عن رضائه عن الحوار الأمريكى مع منظمة التحرير الفلسطينية، واصفاً إياه «بمناقشات منخفضة المستوى» تجنبت الحديث عن أية أمور جادة، والتى ضمنت لإسرائيل «عاماً على الأقل» لحل مشاكلها بالقوة. «إن ساكنى الأراضى قابعون تحت ضغوط قاسية، سواء عسكرية أو اقتصادية»، كما أوضح رابين، و«فى النهاية، ستقصر ظهورهم»، وسيقبلون الشروط الإسرائيلية^(٧٤).

وقد خرجت هذه الشروط على الملأ فى مخطط مايو ١٩٨٩م لحكومة الائتلاف بيريز-شامير، التى تعهدت بألا يكون هناك «دولة فلسطينية إضافية» (اعتبار الأردن «دولة فلسطينية») وأنه لن «يكون هناك أى تغيير للوضع فى الضفة الغربية وغزة غير ما هو منصوص عليه فى المخطط الرئيسى للحكومة (الإسرائيلية). إضافة إلى ذلك، لن تعقد إسرائيل أية مفاوضات مع منظمة التحرير الفلسطينية، بالرغم من سماحها «لانتخابات حرة»، تدار تحت سلطة الاحتلال الإسرائيلى، فى ظل غياب معظم القادة الفلسطينيين، إما طرداً أو حبساً بدون تهمة موجهة إليهم^(٧٥).

وقد أئنت الحمايم الأمريكية («آرون ديشيد ميلر» بالخارجية الأمريكية، و«هيلينا كوبان» المعلقة حول شئون الشرق الأوسط) على هذا الاقتراح، واصفة إياه بأنه يعطى «وعوداً عظيمة» مركزين فقط على نقطة «الانتخابات الحرة» التى سوف تسمح بها إسرائيل. وفى ديسمبر ١٩٨٩م، تبنى مخطط «جيمس بيكر» بالخارجية الأمريكية، رسمياً، مخطط بيريز-شامير، عارضاً على الفلسطينيين حواراً بمقاييس معينة. ومرة أخرى، لا تبلغ الوقائع المهمة الجمهور الأمريكى، اللهم إلا الوقائع الهامشية.

إلا أنه ظلت هناك مشكلة، بالنسبة لحكومة بوش الأب وحكومة العمل-الليكود، متمثلة فى كيفية تطبيقهما الشكل المتطرف للرفض، كما كانت الحكومات السابقة تفعل من قبل. ولكن تلك المشكلة سرعان ما انتهت، بعد شهور قليلة، فى

أغسطس ١٩٩٠م، عندما احتل صدام حسين الكويت، مسيئاً فهم قوانين النظام العالمي، كأى ديكتاتور منعزل عن العالم.

وحتى يوم الاحتلال، استمر كلُّ من بوش ومارجريت تاتشر فى إرسال المعونات إلى صدام، وكانت وزارة الخارجية الأمريكية قد أوضحت لصدام أن واشنطن لن تمنع فى تصحيحه للحدود المتنازع عليها مع الكويت، وكذلك لن تمنع فى إغرائه لدول نفطية أخرى برفع الأسعار. والظاهر، أن صدام فسّر هذا على كونه سماحاً له باحتلال الكويت. وربما يعدنا هذا إلى المبادئ، التى تم إعلانها فى ١٩٥٨م.

لقد تخوفت إدارة بوش من انسحاب سريع لصدام، تاركاً وراءه نظاماً من العرائس المتحركة، مكرراً ما فعلته الولايات المتحدة فى بنما. بالطبع، التوازى التاريخى ليس منضبطاً كما نظن. فعدد الضحايا المدنيين فى بنما كان أكبر بكثير من الكويت فى تلك المرحلة، بالإضافة إلى اختلافات أخرى بين الحالتين. وقد حذر رئيس أركان الجيش «كولين پاول» - فى جلسات داخلية - من «تمكن العراق من الانسحاب فى خلال الأيام القادمة»، تاركاً وراءه «حكومة العرائس المتحركة»، الأمر الذى «سيسعد كل مواطن فى العالم العربى»^(٧٦). أما اللاتينيون الأمريكيون، فهم - على العكس - لم تسعدهم البتة الممارسات الأمريكية (المتشابهة) فى بنما. إلا أن الفارق الجوهرى بين الحالتين، يتمثل فى قدرة الولايات المتحدة، فى حالة بنما، على نقض قرارات مجلس الأمن من خلال الفيتو، ومن ثم إبطال أية معارضات أخرى لاحتلال هذه الدولة، بينما تمثلت قدرتها، فى حالة العراق، على شحذ التأييد الدولى للتأكيد بأن مبادرات الانسحاب العراقى غير جادة، ومن ثم فينبغى الرد على هذا الأمر «بعنف وشراسة»^(٧٧).

وفى الوقت الذى كانت فيه القنابل تساقط على بغداد، وفى الوقت الذى كان فيه الفلاحون العراقيون المجندون يختفون فى وسط الرمال، أعلن جورج بوش (الأب) المبدأ الأساسى للنظام العالمى الجديد، متمثلاً فى كلمات: «ما نقوله هو ما سيكون»^(٧٨). وفعلاً كان. فبعد انتهاء الحرب مباشرة، اندلعت ثورة عارمة فى مناطق الشيعة بجنوبى العراق، مستهدفة قلب نظام صدام، والذى رد عليها

بضربات موجعة . وغضبت الولايات المتحدة طرفها عما يحدث ، رافضة حتى وصول ألوية الجيش المتمردة إلى الأسلحة العراقية ، التي تم الاستيلاء عليها ، مانعة إياهم من حماية الشيعة المدنيين من بطش صدام . وكان الدافع الرسمي - كما حدده «توماس فريدمان» مدير المراسلين الديبلوماسيين لجريدة «نيويورك تايمز» - يتمثل فى أن «أحسن ما يكون» بالنسبة لواشنطن «هو مجلس سياسى عراقى ذو قبضة حديدية بدون صدام حسين» ، أى عودة للزمن الجميل ، عندما كان صدام حسين «يمسك العراق بقبضته الحديدية ، الأمر الذى كان يرضى حلفاء أمريكا ، السعودية وتركيا» - وبالطبع راعيهم الدولى المهيمن^(٧٩) . وبما أنه لا توجد نسخة ثانية لصدام ، فلا مفر من الخيار الثانى ، وهو ثانى أفضل خيار : أن يقبض وحش بغداد نفسه بيده الحديدية على المجلس السياسى العراقى . وقد وصف «ديفيد هاويل» - رئيس لجنة الشؤون الخارجية بمجلس العموم البريطانى - السياسة الأمريكية - البريطانية على أنها تقول لصدام حسين : «الحال مستتب الآن ، يمكنك القيام بأية أعمال وحشية تريدها»^(٨٠) .

وقد أكدت الجهات الرسمية الأمريكية بأن إدارة بوش ستستمر فى رفضها للتحديث مع العراقيين الديمقراطيين ، وكذلك فى رفضها لإثارة أية أسئلة حول قضية الديمقراطية فى الكويت . فهذا - كما تشير الجهات الرسمية - يعتبر تطفلاً وتدخلاً فى الشؤون الداخلية للدول الأخرى . ومن ثم ، فلا يصح التحديث عن الديمقراطية ، لا فى العراق ولا فى الكويت . أكثر ما كان يلزم العراق هو «الاستقرار» ، الأمر الذى تطلب توفير التأييد اللازم لصدام حسين فى أثناء قمعه لثورات الجنوب ، والذى تم تحت أعين «ستورمين نورمان سفارتس كوف» ، وفى أثناء قمعه لثورات الأكراد . وفى الحالة الأخيرة بالذات ، قام الجمهور الأمريكى برد فعل غير متوقع ، أجبر على أثره واشنطن على الحد من عمليات صدام حسين الوحشية ، بالرغم من تلقيه دعماً شفوياً من جانب تركيا ، المعروفة بأساليبها القمعية الشديدة تجاه سكانها الأكراد ، وبالرغم من تلقيه دعماً من جانب إسرائيل ، حيث حذرت شخصيات عسكرية وسياسية (من ضمنها رئيس الأركان المتقاعد) من إمكانية إيجاد الأكراد لأرض مشتركة فيما بين دمشق وطهران ، مما يستدعى ، من وجهة النظر الإسرائيلية ، السماح للسفاح بالقيام بواجبه فى تلك المنطقة^(٨١) .

إن نتائج حرب الخليج منحت الولايات المتحدة الحاجة والفرصة لتنفيذ «برنامجها الرفضي - rejectionist program». فأما الحاجة، فانطلقت من الصورة التي هيمنت على منطقة الخليج بعد الحرب: عودة وحش بغداد إلى الحكم ثانية، وهذه المرة بتأييد ضمنى من قبل الولايات المتحدة، وليس بتأييد علنى كما كان الوضع من قبل، ضرب الثورات والاحتجاجات بعنف، ضمان حماية «الواجهة العربية» من أية ضغوطات ديموقراطية، بدء إصدار تقارير غربية موثوق فيها (سواء تقارير طبية أو تابعة لجمعيات حقوق الإنسان) عن آلاف الأطفال العراقيين الذين يموتون كمدأ؛ بسبب العقوبات المفروضة، التى كانت موجهة أساساً للقضاء على الشعب المدنى، وليس على صدام حسين. لم يكن ذلك مشهداً، ليترك فى الذاكرة الشعبية.. بل كان لا بد من تفعيله.. باختصار، كان لا بد من إيجاد انتصار عاجل.

وأما الفرصة، فقد انطلقت من الواقع الجديد، الذى فرضته الولايات المتحدة بعد حرب الخليج، واقع «النظام العالمى الجديد» - «ما نقوله يكون» - الذى صار الآن مقبولاً من الجميع، على الأقل فى منطقة الشرق الأوسط. ولم يكن أمام أوروبا، التى عادت خطوة إلى الخلف، إلا تسهيل «برامج الرفض» الأمريكية، كما فعلت النرويج فى عام ١٩٩٣م. والاتحاد السوفييتى لم يعد له دور، وكذلك العالم الثالث، الذى سقط فى أتون الفرقة والشرذمة، خاصة بعد الكارثة الاقتصادية التى أحلت به فى الثمانينيات. ومن هنا، صار الطريق مفتوحاً أمام الولايات المتحدة، لتحقيق على الأقل مبدأين أساسيين، كانت تختزنهما وتدعمهما فى صمت لمدة عشرين عاماً: ١ - لا للمؤتمرات الدولية، ٢ - لا لحق تقرير المصير للفلسطينيين.

وهذا بالضبط ما تحدث عنه مفاوضات مدريد، التى بدأت فى خريف ١٩٩١م، وسط تصفيق وتهليل كبيرين. لقد مضت المفاوضات، فى الوقت الذى كانت فيه إسرائيل متواصلة، فى دأب وإصرار، على التوسع فى الأراضى، فى ظل المباركة الأمريكية، هذا بالرغم من استمرار واشنطن فى تفضيل حزب العمل الإسرائيلى، الذى يتميز بإدراك أوسع للأمور عن غريمه الليكود، مما يجعله أكثر قدرة على عرض ممارساته بدون استدعاء إنكار الآخرين. ولعل هذا يعتبر الفارق الوحيد بينهما، أما ما دون ذلك، فالفوارق ليست جوهرية البتة. ولم يفت وقت طويل،

حتى وصل كليتون إلى البيت الأبيض ، والذي فاجأنا بتأييده لسياسات إسرائيلية أكثر تشدداً وتطرفاً . ثم ظهرت تحديات متصاعدة من قبل الفلسطينيين أنفسهم تجاه عرفات ، كما ذكرت تقارير إسرائيلية في صيف ١٩٩٣ م .

وفي سبتمبر ١٩٩٣ م ، تم توقيع «إعلان المبادئ» في واشنطن . فتضمنت المبادئ الأساسية للبرامج «الرفضية» الأمريكية الإسرائيلية . أولاً : اعتمد «الوضع الدائم» فقط ، على قرار الأمم المتحدة ٢٤٢ ، الذي لا يمنح شيئاً للفلسطينيين (وقد قامت الولايات المتحدة بمنع قرارات الأمم المتحدة ذات العلاقة بقرار ٢٤٢ منذ منتصف السبعينيات ، لكونها تعترف بحقوق الفلسطينيين) . ثانياً : ، تم وضع قرار ٢٤٢ في إطار أحادي فرضته الولايات المتحدة منذ ١٩٧١ م (وهو إطار يقول بأن يكون الانسحاب جزئياً) ، وهو الذي تم تضمينه في مشروع شامير-بيكر لعام ١٩٨٩ م . ولعله من المفترض ، أن تقوم الولايات المتحدة وإسرائيل بتعديل هذا المشروع ، ولو حتى من الناحية البلاغية . . على الأقل . وسيكون من المنطقي لهما ، أن يستخدموا لفظ «الدولة» للإشارة إلى الكانتونات ، التي ستركونها للإدارة الفلسطينية المحلية ، مثلما فعلت جنوب أفريقيا ، حينما أنشأت «أوطاناً» في أوائل الستينيات-فكان برنامجاً استحق وصفه بـ «عملية السلام» كما يستحق البرنامج الحالي ، ولكنه لم يحظ أبداً بذلك الوضع .

وسواء قررت الولايات المتحدة وإسرائيل تسمية الكانتونات بالـ «دولة» أو بأى شيء آخر - ربما «الفراخ المحمرة» ، كما اقترح «ديفيد بار-إلان» يوماً - فإن النتائج في النهاية لن تختلف كثيراً عن نموذج «البانتوستان»^(٨٢) . فأى مراقب للوضع في الأراضي المحتلة ، والذي أوجده كلٌّ من رابين-بيريز-نتنياهو ومن سبقوهم (وخلفاؤهم) ، سيلاحظ على الفور مدى القرب بين هذا المشهد ، والمشهد الأفريقي :

إن احتفاظ جنوب أفريقيا بقوتها المهيمنة في داخل «البانتوستان» من خلال موظفيها ، ومن خلال سيطرتها الاقتصادية الواضحة ، وتنسيقاتها الأمنية ، جعل من مبادرة الانتخابات أضحوكة ومهزلة . هذا بالإضافة إلى طاقم الدولة البيروقراطي المتوسع ، الذي كان يوفر الوظائف لطبقة جديدة من الأفارقة المتعلمين لتوطيد

علاقاتهم مع الدولة، فى شكل جديد، وكذلك كان يوفر وظائف لمجموعة صغيرة من الأفارقة، يفتح الأبواب أمامها للقروض والتأثير السياسى . وعلى هامش «البانتوستان» ، كانت الدولة تخطط لإنشاء مراكز صناعية تنموية، كوسيلة لتحرير رأس المال من بعض القيود التى تفرض على التوسع الصناعى، وأيضاً كوسيلة لاستغلال العمالة الرخيصة الموجودة بـ «البانتوستان» . إن التنمية الاقتصادية فى داخل «البانتوستان» لم تتمحور حول النشاط التطبيقى، بقدر ما تمحورت حول الكتيبات الإعلامية، إلا أن بعض موظفى الدولة أدركوا، من وجهات نظرهم، مدى احتياج تلك «الأوطان» إلى إعادة تأسيس وإحياء، لمنع اقتصادها من تدهور متالى (٨٣) .

وحتى هذه اللحظة، لم يدرك ولم يعترف موظفو الدولة الإسرائيلية بحاجة الكانتونات إلى ما يحفظ اقتصادها من السقوط، ومن التدهور المتالى، إلا أنهم لن يفلتوا، سواء كان أجلاً أو عاجلاً، من مطالب رجال الصناعة الإسرائيليين، التى ستمثل فى «التحول من الاحتلال إلى الاحتلال الجديد» فى داخل الأراضى، بتضافر مع «ممثلى البورجوازية الفلسطينية» ، ومن ثم خلق «وضع مشابه للعلاقات بين فرنسا وكثير من مستعمراتها القديمة فى أفريقيا - أو بين الولايات المتحدة والمكسيك، أو بين المستثمرين الغربيين والعالم الثالث، أو بين المستثمرين الغربيين وشرق أوروبا، أو بين رأس المال الدولى وجنوب شرق الصين، إلخ (٨٤) .

وكما هو الحال فى الولايات المتحدة، فإن خطر نقل الصناعة الإسرائيلية عبر الحدود يمكن أن يستخدم، وبفعالية، فى قمع الاتحادات، تخفيض الرواتب، تزويد الفجوة وعدم المساواة، والتقليل من هاجس الديمقراطية . وكما أوضح بعض موظفى «الهيستادروت» : «إذا فكر أى اتحاد فى الإضراب، فبإمكان رجال الصناعة غلق مصانعهم، وإنشاء مصانع جديدة فى غزة» . وهو السيناريو الذى كان مفضلاً لدى «إسحاق رابين» خاصة، حيث كان «لا يخفى أبداً عداوته تجاه الهيستادروت، وكذلك لا يخفى توجهاته نحو السوق الحرة» - «السوق الحرة» ذات الطابع الأمريكى (٨٥) . وفى «أوفاكيم» ، قامت بالفعل مجموعة من المنتجين بوقف صناعاتهم، ونقل مقرها عبر الحدود (الفاصلة بين إسرائيل والأراضى

المحتلة)، للاستمتاع بحظ أوفر من خلال العمالة الرخيصة، وهو يمثل غوذجاً جيداً لوعود «بيريز» حول «النظام الجديد» في الشرق الأوسط.

لقد أسهمت السياسات الإسرائيلية في تدهور بل في سقوط الاقتصاد الفلسطيني. فلم يسمح للأراضي المحتلة (أراضي ٦٧) بتنمية اقتصادها تحت الحكم الإسرائيلي، وهي الآن تأخذ خطوات سريعة إلى الوراء، بالرغم من تمكن الفلسطينيين «ذوى الصلة بالنظام» و «ذوى الصلة بالقروض والنفوذ السياسى» بإثراء أنفسهم عبر سرقة المعونات الخارجية بالتعاون مع إسرائيل. وعلى نفس المنوال، نرى الولايات المتحدة وهي تغمز للحكومة الإسرائيلية الفاسدة، التي تحول بلايين الدولارات من الضمانات والقروض الأمريكية - والتي كان من المفترض أن تذهب إلى المهاجرين اليهود - إلى النظام البنكى الإسرائيلى (الذى آل إلى الحكومة بعد فضيحة البنوك في ١٩٨٣م)، حيث توفر له «سيولة أكبر لمنح القروض إلى الشركات الكبيرة، والصغيرة، والأفراد»، ومن ثم تمكين الإسرائيليين من «الحصول على سيارات، رحلات وسفريات خارجية، أو المضاربة فى البورصة»، فى دولة ذات ثراء اصطناعى، والتي تدخل حالياً فى تنافس محموم مع الدولة التي تمولها، للوصول إلى القيادة غير العادلة فى العالم الصناعى.

باختصار.. أن الفساد المتفشى فى الدول العميلة لا يعتبر مشكلة كبيرة، كما هو الحال فى الدولة الكبرى الممولة، ما دام «الناس ذوو الأهمية» يأخذون نصيبهم^(٨٦).

تبعاً لتقارير بنك النقد الدولى لعام ١٩٩٦م، ومنذ أن بدأت عملية أوسلو، وصلت نسبة البطالة فى الأراضي (المحتلة)، إلى حوالى الضعف، كما انخفض راتب الفرد بنسبة ٢٠ ٪، بينما تدهور حجم الاستثمارات إلى النصف. ومما زاد الأمر سوءاً، هو تعنت الإدارة الإسرائيلية، خاصة تحت حكم حزب العمل، فى منع الصادرات الفلسطينية من ناحية، بينما جعل السوق الفلسطينى أسيراً للواردات الإسرائيلية باهظة الثمن، والتي تزداد غلاءً من خلال احتكارات السلطة الفلسطينية. وقد أقرت تقارير البنك الدولى: تصاعد إجمالى الصادرات الإسرائيلية بنسبة النصف تقريباً، «ووصلت تقريباً إلى الضعف فى الأسواق الآسيوية التى فتحت على مصراعيها؛ بسبب بدء عملية السلام، بينما تصاعد الاستثمار الخارجى فى إسرائيل على نحو ستة أضعاف»^(٨٧). أما فى الأراضي

(المحتلة)، فقد قدرت وكالات الأمم المتحدة انخفاض إجمالي الدخل القومي للفرد، منذ أواسلو ١، بنسبة ٤٠٪، الأمر الذي ضاعف من «عملية تأخر التنمية في الأراضي التي بدأت في عام ١٩٦٧م»^(٨٨). بل إن بعض المراقبين الآخرين، ذوي الدراية والخبرة، ما زالوا يرون أن نسبة التدهور كانت أعلى من ٤٠٪.

باختصار، أن عملية السلام تتبع قانوناً ذا عمومية واضحة: فهو يخدم أطماع مهندسيه بمنتهى اللطف، بينما يعتبر مصالح الغير «عارضة، وليست غاية». أما بالنسبة «للناس غير المهمين»، فقد منحت عملية السلام الولايات المتحدة وإسرائيل آليات جديدة لاتباع نصيحة «موشيه ديان» - أحد زعماء حزب العمل، الذي يعتبر أكثر تفاعلاً مع المشكلة الفلسطينية - في الأيام الأولى للاحتلال، والتي نصت على الآتي: يجب على إسرائيل إخبار اللاجئين الفلسطينيين في الأراضي أنه «ليس لدينا حل، فعليكم أن تظلوا تعيشون عيشة الكلاب، وكل من يأمل في الرحيل فليرحل، وسنرى إلى أين ستقودنا هذه العملية». وهذا الاقتراح تمت إعادته في ثوب جديد بعد ذلك، على لسان «حاييم هيرتسوج» في عام ١٩٧٢م: «أنا لا أنكر على الفلسطينيين مكاناً لهم، أو موقفاً يبدو أنه على أي أمر. ولكنني، من المؤكد، لست على استعداد أبداً لقبولهم كشركاء، على أية حال، في أرض قد كرس في أيدي شعبنا لآلاف السنين. فإنه بالنسبة ليهود هذا البلد، لا يمكن أن يكون هناك أي شريك»^(٨٩). والحق يقال: إن مفاهيم حمائم حزب العمل، وكذلك مفاهيم عماليهم الأمريكيين، لم تتغير بطريقة جوهرية، اللهم إلا تغيير الشكليات الخارجية.

وفي ذروة السياسة الإسرائيلية الرافضة، في منتصف عام ١٩٨٨م، دعا رايبين إلى تسوية، تترك لإسرائيل السيطرة على ٤٠٪ من الضفة الغربية وغزة، وهي نسخة مجددة لمخطط «ألون». وفي اتفاقية أواسلو ٢، وافق على قبول ضعف هذه النسبة، على أن إسرائيل لن يكون لديها مانع، على الإطلاق، إذا ما نقلت أكثر الأراضي فقراً إلى الإدارة المحلية الفلسطينية، بينما تحفظ سيطرتها على المناطق ذات الثروات الحيوية... وهو الأمر الذي يقترب كثيراً من تصورات رايبين ١٩٩٨م.

وبعد أواسلو ٢، أعلم بيريز مجموعة من السفراء في القدس أن «هذا الحل الذي يفكر فيه كل إنسان، والذي تمنونه أنتم، لن يتحقق أبداً». وقد استمر،

وبإصرار، في تأكيد تلك الرؤية، خاصة في ظل التمويل والتأييد الأمريكي - فعلى سبيل المثال، ما أعلنه وزير الإسكان، «بنيامين» («فؤاد») بن-إلعازر، في فبراير ١٩٩٦م، عن بناء ٦٥٠٠ وحدة سكنية لليهود فقط في منطقة جنوب شرق القدس، التي تطلق عليها إسرائيل «حار حوما»، على أن يبدأ هذا المشروع في خلال عام. وحاول عشرات الفلسطينيين، قبيل انتخاب «نتنياهو» بأيام قليلة، الوقوف في طريق البلدوزرات التي أعدها «بيريز» لتنفيذ المهمة. ولم يكتف «بن-إلعازر» بهذا المشروع، بل أعلن عن خطط إنشائية أخرى، في شرق القدس (مخطط إي-١)، والتي تعتبر أكثر أهمية من سابقتها. وجميع هذه التطورات من شأنها أن تؤدي في النهاية إلى شق الضفة الغربية إلى جزئين، مع إدراج «معالي أدوميم» في «القدس الكبرى»، تبعاً للبرامج التي أعلنت من قبل إدارات رابين-بيريز بعد اتفاقيات أوسلو، والتي تم بعد ذلك تطبيقها على يد نتنياهو، الخليفة الليكودي. وبينما كانت الأنظار متجهة صوب منشآت «حار حوما» (جبل أبو غنيم)، والتي تم إرجاعها بالخطأ إلى مبادرات الليكود، إلا أن وزير الدفاع «إسحاق مورديخاي» أعلن أن «مخطط إي-١» التابع لحزب العمل، هو الذي سيتم تنفيذه، مع مبان سكنية، ومد طرق جديدة. وقد رحب عضو الكنيست «ميخائيل كلاينر» وهو رئيس «جبهة توسيع أرض إسرائيل»، بإعلان «مورديخاي»، معتبراً هذا المخطط، والذي كان يمثل «مبادرة وزير الإسكان السابق بنيامين بن-إلعازر تحت إشراف إسحاق رابين»، هو «الأهم» من بين كل مطالب الجبهة، بل هو أكثر أهمية من «حار حوما».

وقد أوضح بن-إلعازر أن «فؤاد فعل كل ما في وسعه ليوفر حماية كاملة لرئيس الوزراء»، مستخدماً تلك الكلمات مثل «التنمية الطبيعية» بدلاً من «المستوطنات الجديدة»، في أثناء قيامه بتنفيذ سياسات حزب العمل الهادفة إلى توسيع «القدس الكبرى»، متضمنة «معالي أدوميم»، «جيفات زعيف»، و«بيتار» كمرحلة أولى في عملية بناء المستوطنات حول القدس، والتي ستلحقها «سلسلة أخرى من المستوطنات» كمرحلة ثانية. وتبعاً لـ «يوسى بيلين»، أحد الحمايم في حزب العمل، فإن حكومة رابين «زادت عدد المستوطنات بنسبة ٥٠٪» في «جوديا وسماريا» (الضفة الغربية) بعد أوسلو، ولكننا «فعلنا ذلك بهدوء وحكمة»، بينما

أنت، نتباهو، «تعلن عن أغراضك كل صباح، مديعاً الرعب وسط الفلسطينيين، ومحولاً موضوع القدس كعاصمة موحدة لإسرائيل - وهو أمر يتفق عليه جميع الإسرائيليين - إلى موضوع ذى جدال وسجال عالمي»^(٩٠). ولعل هذه العبارة تعتبر صحيحة جزئياً؛ لأن هذه «الحكمة» تطاولت وامتدت إلى ما وراء القدس.

إن اختلاف الطريقة يرجع غالباً إلى جمهور الناخبين لدى الحزبين. فحزب العمل، وهو حزب العلماء المتخصصين المثقفين والنخبة الغربية، أكثر تأقلماً مع المعايير الغربية، وأكثر إدراكاً بضرورة توفير وسيلة للممولين «بألا يروا» ما يفعلون. أما طريقة «الليكود» الوقحة الفجة، للوصول إلى نفس النتائج، فهي تسبب حرجاً لدعاة حقوق الإنسان الغربيين، وتؤدي بعض الوقت إلى الصراع والشوشرة.

إن برنامج العمل/ الليكود، لتدشين تسوية على طريقة «البانتوستان»، لا يمكن اتهامه باختراقه لعملية السلام. فأوسلو ١ لا تذكر شيئاً عن ذلك، بصرف النظر عن الاشتراطات حول «الوضع الدائم» التي ذكرناها سالفاً، والتي تدشن المبادئ الأساسية لمخطط بيريز-شامير-بيكر، وسياسة الرفض الأمريكية الإسرائيلية، على المدى البعيد. أما أوسلو ٢، فهي - على النقيض - تتحدث عن قضايا رئيسية كثيرة بمنتهى الصراحة والوضوح. وقد راجعت التفاصيل، ولكنى لن أعيدها في هذا الموضع^(٩١).

باختصار، أن أوسلو ٢ تضمن لإسرائيل سيطرة دائمة على أغلب مصادر المياه، وتفرض - عنوة - ظروفًا غير إنسانية على الفلسطينيين، بما يتضمن الشرطة الفلسطينية التي تتجول في «الطرق الفلسطينية». كل هذه الأمور الشنيعة والبغيضة خُصصت للفلسطينيين، لتجعل حياتهم أسوأ ما يكون. هذا في الوقت الذي يذهب فيه الإسرائيليون والسائحون إلى مقاصدهم، عبر الطرق العامة الحديثة، التي تقيهم وتحررهم من رؤية السكان العرب، وهم يحيون شظف العيش، بعيداً عن أسرهم، وأماكن عملهم، ومؤسساتهم. أما بالنسبة إلى الأرض، فإن الاتفاقية تسمح لإسرائيل أن تفعل ما تشاء. بل إن اتفاقية أوسلو ٢ توجب على الفلسطينيين «احترام الحقوق الشرعية للإسرائيليين (بما فيها الشركات المملوكة لدى الإسرائيليين) ذوى الصلة بالأراضي الواقعة في مناطق

تحت سلطة المجلس الفلسطيني - أى كل الأراضي المحتلة - خاصة حقوقهم المتعلقة بأراضي الدولة وأراضي الغائبين، وهى فئة غير محددة. . تتمدد وتتوسع تبعاً لهوى إسرائيل، حيث تصل إلى ٧٠٪ من الأراضي، كما تقول الصحافة الإسرائيلية^(٩٢). ومن ثم، فإن أوصلو ٢ أبطلت وألغت الموقف العالمى بأسره، بما فيه إلغاء الموقف الأمريكى - وهو أن الحقوق الشرعية لا يمكن الوصول إليها عبر الاحتلال - وكذلك، فهى أبطلت التفسير الأمريكى، فيما بعد ١٩٧١م، لقرار الأمم المتحدة ٢٤٢.

إن الفلسطينيين وغيرهم يوهمون أنفسهم، ويوهمون غيرهم، عندما يقولون بأن إسرائيل قد ألزمت نفسها «بالانسحاب من الأراضي الفلسطينية المحتلة، بما فيها القدس» وفق قرار ٢٤٢ أو غيره، أو أن الإسرائيليين وافقوا على منح الفلسطينيين «السيادة على المياه، الاتصالات والنقل، من ضمن أشياء أخرى»، أو أن مبادرة مدريد التابعة لـ جورج بوش «قد تضمنت تطبيق وتنفيذ قرارات الأمم المتحدة على فلسطين» (وزير الخارجية الفلسطينى قدومى). أو أن «مصطلحات المرجع لعملية السلام، يتم تقديمها وعرضها عبر قرار ٢٤٢، اتفاقيات أوصلو، ومؤتمر مدريد، «والتي تحتفظ بمبدأ الأرض مقابل السلام» (الدبلوماسى المصرى عبد العليم الأبيض^(*))^(٩٣). كل هذه المقولات ليس فيها شىء من الحقيقة، كما توضح الوثائق، وكذلك الأفعال، إلا إذا قمنا بتفسير مثل هذه العبارات، «الأرض مقابل السلام»، فى ثوب من السخرية، الذى كان يمكن أن تتقبله سياسة «الأوطان الأفريقية».

الحمايم الإسرائيلية يمكنها أن تفضل ما أسماه بعض المراقبين بدولة «الإنكار الجمعى للذات»، التى تتجاهل أية وثائق أو سياقات تاريخية لتلك الذات، «فلا ترى» ما يحدث على بعد بضعة أميال منها - وهى ظاهرة ليست فريدة فى إسرائيل. وقد يستمتع ممولو ومؤيدو إسرائيل بهذا الموقف العقلى، فيرونه مريحاً. . . إلا أن الحقائق ستظل موجودة وظاهرة.

وهذه الحقائق لا تتوقف عند الأراضي المحتلة، بل تمتد إلى ما وراءها. . تمتد فى داخل إسرائيل نفسها، حيث نجد تشابهات جنوب أفريقيا ماثلة أمام أعيننا مرة أخرى، إذا لم تكن متطابقة. وكذلك تمتد الحقائق إلى الشتات الفلسطينى، خاصة

(*) عبد العليم الأبيض: رئيس المكتب الإعلامى بالسفارة المصرية فى واشنطن (سابقاً).

بعد قيام الرئيس «بيل كلينتون» برفض قرار الأمم المتحدة ١٩٤ (والذى شاركته فى هذا الرفض إسرائيل وحدها)، وهو بهذا رفض القرار الذى كان يتحدث عن المعنى الدقيق للمادة ١٣ المدرجة تحت الإعلان العالمى لحقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة. وبما أن التصويت السلبي الأمريكى يتحول فى النهاية إلى قيتو، فقد صار حق الفلسطينيين فى العودة، أو فى قبول أية تعويضات، باطلاً وملغياً من الناحية الرسمية. أما الإقرار بتلك الحقوق، فقد كان دائماً ملفوفاً بثوب من النفاق. باختصار، لم يكن هناك أى نية لتنفيذ قرار ١٩٤، ولا حتى تطبيق حقوقهم فى التعويض، والتى قدرها وزير الخارجية الإسرائيلى «موشيه شاريت» بـ١٩٥٠م (٥٠٪ أكثر من التعويضات الألمانية إلى إسرائيل)، والتى تصل حالياً إلى ٦ بلايين دولار، بدون أية فوائد^(٩٤).

فى عام ١٩٤٨م، تنبأ أعضاء من الحكومة الإسرائيلية المؤيدون للعرب بأن يواجه اللاجئون أمرين لا ثالث لهما: إما الذوبان فى أى دولة أخرى، أو وقوعهم تحت «القمع» و «الموت»، حيث «يتحول أغلبهم إلى تراب آدمى ورفات للمجتمع، ملتحقين بأكثر الطبقات فقراً فى الدول لعربية»^(٩٥). وجدير بالذكر، أنه إذا نجحت الخطط الحالية، فإن هذه التنبؤات قابلة للتحقق بسهولة. وبعيداً عن أولئك المميزين الذين سيتأقلمون مع عمليات التسوية، الاستعمار الجديد، فإنه سيبقى هناك فى «الأراضى» من يتطلع وينظر بشغف إلى مستقبل الهايتيين المتألق. وهم يزرعون فى الأراضى الأمريكية، ليتقاضوا بعد ذلك بعض القروش على الساعة الواحدة، أو يتطلعون إلى العمال، شبه العبيد، الذين يشتغلون بمصانع الصين للصادرات، الواقعة تحت سيطرة خارجية. إن الفلسطينيين فى داخل إسرائيل، عليهم أن يتوقعوا العيش كحال اليهود الأمريكيين والسود الأمريكيين، إذا ما صارت الولايات المتحدة الأمريكية «دولة سيادة المسيحيين البيض» فى كل العالم (فى إعادة صياغة للقانون الإسرائيلى)، وليس دولة لمواطنيها. ليس هناك حتمية لذلك، لكنه يمكن أن يحدث، وإذا حدث، سيتعين - فى رأى - على قطاعات النخبة الأمريكية والإسرائيلية والفلسطينية الإجابة على الكثير.

الفصل الثانى

إمكانيات السلام فى الشرق الأوسط

قبل دخولنا فى مناقشة إمكانيات السلام فى منطقة الشرق الأوسط، اسمحوالى أن أضع بين أيديكم بعض الملاحظات الأولية والمهمة. **الملاحظة الأولى** تتلخص فى كون السلام مُفضلاً عن الحرب، إلا أن ذلك لا يشكل، ولا يمثل مبدءاً مطلقاً، ومن ثم، فنحن نتساءل دائماً، «أى صورة من السلام؟» فمثلاً. لو أن «هتلر» كان قد احتل العالم، فكان سيكون هناك سلام، إلا أنه ليس ذلك السلام الذى نبغيه، أو نبحث عنه.

الملاحظة الثانية تتمثل فى أن هناك أبعاداً كثيرة حول موضوع تلك الإمكانيات. فهناك ماطنٌ متعددة تشهد عنفاً حقيقياً ومستمراً - ثلاث منهم سأختصهم بالذكر. منطقة العراق، حيث تدور المشكلة حول العقوبات والقصف معاً(*) . منطقة تركيا، حيث شهد واحدة من أكبر الكوارث الإنسانية، خاصة فى التسعينيات، وهى كارثة الأكراد. ولنى تستمر حتى يومنا هذا «أخيراً، منطقة إسرائيل وفلسطين. وهناك أمور أخرى جديرة بالاعتبار، مثل التساؤل حول موضع إيران فى داخل منطقة الشرق الأوسط... أينما تذهب عينك، نرى قمعاً شديداً، انتهاكاً لحقوق الإنسان، تعذيباً، وفظائع أخرى. ومن ثم، فإن التساؤل حول سلام الشرق الأوسط لديه أبعاد عديدة.

أما **الملاحظة الثالثة والأخيرة**، فتتمثل فى كون الولايات المتحدة تلعب دوراً مهماً للغة، وغالباً دوراً حاسماً وفاصلاً، فى هذه القضايا. بالإضافة إلى أهمية عامل التدخل الأمريكى، وموقعه المركزى فى هذه القضايا. لأسباب واضحة وضوح الشمس - فهو العامل الوحيد الذى يمكننا (الشعب الأمريكى) التأثير عليه مباشرة. أما العوامل الأخرى... فيمكننا شجبها واستنكارها، إلا أننا لا نستطيع أن نفعل

(*) تم كتابة هذا الفصل قبيل الغزو الأمريكى للعراق، وصدر الكتاب عام ٢٠٠٣م - المترجم.

الكثير بخصوصها . وهذه حقيقة بديهية ، أو هذه لا بد أن تكون الحقيقة البديهية ، إلا أنه من المهم تسليط الضوء عليها ، لكونها تقريباً مرفوضة . فالعقيدة المهيمنة تقول : لا بد من التركيز على جرائم الآخرين ، وندبها والنواح عليها ، ولا بد ، من الناحية الأخرى ، تجاهل جرائمنا وإنكارها . بلغة أكثر توضيحاً ، علينا تصميم الطريقة التي نرى من خلالها الأشياء ، بحيث نتجنب أى إمكانية للوقوف أمام المرأة لنرى أنفسنا على حقيقتها . . . علينا تشكيل حوار ، بحيث لا نصير بصدد إثارة أية تساؤلات حول مسئوليتنا ، وإذا حدث وأثيرت تلك التساؤلات ، فعلينا أن نظهرها فى سياق واحد ، وهو السياق المتعلق بواجبنا وردود أفعالنا تجاه جرائم الآخرين . فنجد الآن ، على سبيل المثال ، ظهور أدبيات ضخمة ، سواء شعبية أو أكاديمية ، حول ما يسمى بمآزق التدخل الإنسانى ، فى حالة حدوث الجرائم على يد الآخر ، كما هو الأمر دائماً . ولكنك ، فى نفس الوقت ، لا تجد كلمة مكتوبة ، ولا تساؤلاً مطروحاً عن مآزق الانسحاب من المشاركة فى العمليات الوحشية المريعة . فهذه النافذة لا بد أن تبقى مغلقة ، ولا بد من إحكام غلقها ، وإلا سنرى أمامنا من الرؤى . . ما يزعجنا ويعكر أمزجتنا .

إن كيفية التهرب من القضايا المركزية ، والمراوغة بها ، موضوع ذو أهمية قصوى ، يحتاج إلى مزيد من الكلام ، إلا أننى سأضعه حالياً على جنب ، مركزاً على الحالات الخاصة التى تهمنا فى هذا الموضوع . ولا بد أن أضيف هنا ، موضحاً ، بأن هذا الموقف المخزى ليس جديداً ، على الإطلاق - بل هو نوع من الثقافة الكونية . وإنه لمن الصعب أن تجد أى حالة تاريخية ، أو فى الوقت الحاضر ، لا يطفى عليها مثل هذا الموضوع .

العراق(*)

لنبداً بالعراق . . . إن التساؤل الحقيقى ، والوحيد فى نفس الوقت ، حول عقوبات الأمم المتحدة ، ينص على التالى : هل هى جرائم بشعة وفقط ، أم هى جرائم إبادية بمعنى الكلمة ؟ ، كما وصفها أولئك الذين لديهم معرفة لصيقة جداً بالوضع ، وخاصة منسق البرنامج الإنسانى للأمم المتحدة فى العراق «دينيس هاليداي» ، وهو موظف بالأمم المتحدة ذو مكانة عالية وجديرة بالاحترام . اضطر للاستقالة بعد

(*) كما سبق وذكرنا ، تمت كتابة هذا قبيل غزو العراق ، وصدر الكتاب عام ٢٠٠٣م - المترجم .

إرغامه على تنفيذ ما أسماه «الإبادة»، كما فعل خليفته «هانز فون شبونيك»^(١) فجميع الجهات متفقة على أن تفعيل وتنشيط العقوبات كان من أجل تدعيم صدام حسين، ومن أجل تدمير الشعب العراقي .

وهناك تبريرات عديدة، تستحق منا الانتباه واليقظة الشديدة. وفي اعتقادي، أنها تقول عنا الكثير. ومن أبسط الحجج، التي قيلت بهدف تبرير العقوبات، كانت تلك الحجة التي عرضتها «مادلين أولبرايت»، حينما كانت سفيراً للولايات المتحدة في الأمم المتحدة. وكان ذلك، حينما سألتها «ليسلى شتال»، عبر تليفزيون الدولة، عن إحساسها تجاه مقتل نصف مليون طفل عراقي تحت آثار العقوبات؟. ولم تنكر «أولبرايت» ما حدث، وأيدت بأن الأمر كان «اختياراً صعباً للغاية»، ولكنها عادت لتقول: «إننا نعتقد بأن الثمن كان يستحق»^(٢). تلك كانت نهاية المناقشة. إنه لمن المفيد للغاية، بأن ننظر إلى رد الفعل. فالتعليق هو تعليقها، ورد الفعل هو رد فعلنا. وبالنظر إلى الأخير، تتكشف دواخلنا أمام أنفسنا، فتزيد معرفتنا بها.

تبرير ثاني يقول، وهو تبرير شائع، بأن المعاناة العراقية ليست إلا نتيجة لخطأ صدام حسين. وهو منطق يغلب عليه الكيد والمكر. فلنفترض بأن الزعم صحيح: وأنه فعلاً خطأ صدام حسين، فهل من المنطقي، أن نقدم له يد العون، بعد ذلك، ليدمر الشعب، ويدعم من حكمه؟

تبرير ثالث يقول بأن صدام حسين ليس إلا وحشاً، كائنًا غير سوى. وإذا استمعت إلى «توني بلير»، «كلينتون»، «أولبرايت»، أو أى من المعلقين عن هذا الأمر، ستجدهم يكررون تبريرهم بأن هذا الرجل ليس إلا وحشاً، لا نستطيع السماح له بالبقاء. بل إنه وصل بعملياته الوحشية إلى الذروة حينما استخدم أسلحة الدمار الشامل ضد شعبه، وذلك من خلال عملياته المروعة، التي قتل فيها الأكراد بالغاز. كل هذا حدث، إلا أن هناك بعض الكلمات الناقصة. فقد قام فعلاً بأعمال وحشية، ليس لها مثيل - مستخدماً غازاً ساماً وأسلحة كيميائية ضد شعبه - بدعمنا وتأييدنا. فقد استمر تأييدنا، وظل صدام صديقاً مفضلاً، وشريكاً تجارياً، وحليفاً بغض النظر عن هذه الوحشية، التي لم تعر انتباهنا، كما تدل في ردود أفعالنا فلقد استمر دعمنا له، بل تزايد وتصاعد^(*).

(*) لما كانت حكومة الولايات المتحدة تدعم وتساند ذلك «الوحش» حين اقترافه تلك الجرائم، كانت - بالتالي - الحكومات العربية الصديقة تدعم وتساند ذلك الوحش.

ويمكنك أن تخوض تجربة فريدة من نوعها، لترى بنفسك مدى صحة هذا الأمر. فلتراقب المناقشات العامة، ولتحاول أن تبحث عن تلك الكلمات الناقصة، التي ذكرناها سابقاً. وسأترك هذه التجربة للقارئ، وهي تجربة ستساهم بالتأكيد في توضيح الأمر. ويمكنني أن أخبركم بالرد مقدماً: أنكم لن تجدوا تلك الكلمات، مما يقول لنا شيئاً عن أنفسنا، وكذلك عن حاجتنا التي سردناها توّاً.

ولنتطرق إلى موضوع «أسلحة الدمار الشامل»، فس نجد الحجة القائمة تنص على التالي: أننا لا يمكننا السماح لصدّام حسين بالبقاء؛ بسبب خطورة أسلحة الدمار الشامل التي يمكنه تطويرها وتنميتها. وهذا كله صحيح، ولا غبار عليه، إلا أنه كان صحيحاً أيضاً عندما كنا غده - عن قصد منا - بالوسائل التي تساعد على تنمية تلك الأسلحة، في وقت كان فيه صدام حسين يمثل خطراً، أكبر مما يمثله اليوم، الأمر الذي يشير بعض التساؤلات حول تلك الحجة.

أما الحجة الرابعة، فتقول إن «صدّام» يمثل تهديداً للدول المجاورة في المنطقة^(*). ولا شك، طبعاً، أنه يمثل تهديداً حقيقياً لكل من يقع في قبضته، حيث ارتكب أفظع جرائمه، وأكثرها شراسة، في ظل التأييد الأمريكي، وفي ظلال المشاركة الأمريكية. ولكن الحقيقة، أن قبضته الآن أقل تأثيراً من ذي قبل، وكذلك فإن الموقف الانتقادي الذي اتخذته دول المنطقة حيال العقوبات والضربات الأمريكية يعكس بوضوح ماهية رؤيتهم لهذه الحجة^(***).

كل ما قلناه يجهض الحجج التي ذكرناها. وتلك الحجج تقضى في النهاية، بأننا ملزمون بالاستمرار في تعذيب الشعب العراقي، ودعم صدام حسين، من خلال فرض تلك العقوبات القاسية. وكما أرى، فإن ذلك يترك المواطن الشريف

(*) ش صدام حسين حرباً شيطانية على إيران لمدة ثمان سنوات - بدون أي سبب إلا الانتقام من الجمهورية الإسلامية الناشئة، لحساب الولايات المتحدة، وإسرائيل، ودولهم الصديقة في المنطقة - ولا يخفى على أحد أن دول المنطقة كانت تمده بالمال والسلاح والرجال، وتكلفت تلك الحرب الشيطانية ما يقرب من مليون قتيل، وأضعاف ذلك من الجرحى، وتدمير مئات المباني والمصانع، وعشرات المدن والقرى، وخسائر تقدر بمئات الملايين من الدولارات، على الحانين العراقي وإيران - المترجم.

ونذكر ثانياً أن دول المنطقة كانت تساند صدام في تلك الحرب الشيطانية بالمال والسلاح والرجال.

(**) وفي الحقيقة، الخطر الأكبر على المنطقة، بل وعلى العالم هو إسرائيل، وهذا ما بيّنه الأوروبيون في استطلاع رأى بتاريخ نوفمبر ٢٠٠٣م - المترجم.

الصادق(*) مكلّفًا بمهمتين أساسيتين . الأولى . . أن يفعل شيئاً تجاه ذلك - ولنتذكر جيداً أننا قادرون على ذلك . والثانية . . أن يُعمل ويُفعل فكره محاولاً فهم واكتشاف الدوافع الحقيقية ، والتي لا يمكن ، أبداً ، أن تكون هى تلك التى وضعناها بين أيديكم .

لا أريد هنا التقليل من حجم التهديد الصدامى . فهناك دوافع ، ذات أهمية بالغة ، تجعلنا نأخذ التهديد العراقى مأخذ الجد . بل كانت هناك دوافع ، أكثر أهمية ، فى أثناء الفترة التى كنا نساعد فيها الرئيس العراقى على إيجاد هذا التهديد ، إلا أن ذلك لا ينفى أننا اليوم بصدد دوافع أخرى . فحالياً هناك دوافع ، تدفعنا إلى الاهتمام بخطورة العنف المتطرف والمدمر فى المنطقة . وليس هذا رأى فقط ، بل هو رأى أيضاً الجنرال «لى باتلر» الذى كان رئيساً للقيادة الاستراتيجية فى عهد كليتون . وهى القيادة المسؤولة عن الاستراتيجية النووية ، وعن استخدام الأسلحة النووية . وقد قال الجنرال «باتلر» ، إنه لفى منتهى الخطورة ، وسط العداءات الموجودة فيما يسمى بالشرق الأوسط ، أن تقوم دولة (إسرائيل) بتسليح نفسها ، بهذه الصورة الظاهرة ، ومعها مخزون هائل من الأسلحة النووية ، ربما تصل إلى المئات ، الأمر الذى يستفز ويستحث دولاً أخرى للتصرف بنفس الطريقة^(٣) .

أو أن تستفزهم لتطوير أسلحة أخرى للدمار الشامل كرادع ، الأمر الذى سيكون له أثر واضح وخطير ، ينذر بالشؤم علينا جميعاً . أما كون «باتلر» محقاً فى ذلك ، فهو أمر لا يقبل الشك . بل إن الخطر سيكون أكثر نذيراً بالشؤم ، إذا تبين لنا أن الولايات المتحدة ، وهى القوة العظمى الراعية لإسرائيل ، تطالب الدول الأخرى بالنظر إليها على أنها «غير عاقلة ولا بريئة» ، ومستعدة للجوء إلى العنف المتطرف ، إذا ما استفزت ، بما يتضمن الاستخدام الأول للأسلحة النووية ضد الدول غير النووية . وقد أشير هنا إلى وثائق تخطيطية ذات مستوى رفيع . . كُتبت فى عهد كليتون ، وتحولت إلى حيز التطبيق من قبل التوجيهات الرئاسية^(٤) ، ولن يريد معرفة المزيد ، وعن الأسباب وراء هلع العالم منا ، فعليه أن يلجأ إلى الوثائق العامة .

ومن المفهوم أن الآخرين فى هذا العالم يضطرون ، طبيعياً ، إلى الحصول على

(*) يقصد المواطن الأمريكى الشريف الصادق - المترجم .

أسلحة دمار شامل، على حسابهم، ليستخدموها كرادع. ويعترف المحللون الاستراتيجيون الأمريكيون، والمخابرات الأمريكية، بأن تهديد البقاء الإنساني يُدعم ويُغذى ويزيد من قبل البرامج، التي تأخذ حاليًا خطى جريئة. فعلى سبيل المثال، كل دول العالم تقريبًا، تنظر إلى برنامج الدفاع الصاروخي الأمريكي كسلاح الضربة الأولى - وهو أمر صحيح لا غبار عليه. وسيقوم، غالبًا، الأعداء المحتملون بالرد من خلال تنمية وتطوير رادع، أيًا كان هذا الرادع. وكل هذا معروف جيدًا لدى المخابرات الأمريكية، كما هو معروف لدى المحللين الاستراتيجيين. . والسؤال الذي نطرحه هنا: لماذا نصر على السعى وراء سياسة تزيد من حجم الخطر، ومن حجم الدمار. . لنا ولغيرنا؟. وربما يمثل الشرق الأوسط الخطر الأول في هذا الشأن - ليس الخطر الوحيد، ولكنه بالتأكيد خطر بدرجة كبيرة.

ومن الجدير بالذكر، أن تبرز كل هذه التساؤلات في عامي ١٩٩٠ و١٩٩١م، قبل حرب الخليج. . وأن تثيرها العراق. فقبيل بداية حرب الخليج، كانت العراق قد عرضت مرة أخرى الانسحاب من الكويت (وكانت قد عرضت ذلك مرات عديدة)، ولكن في سياق تسوية القضايا الاستراتيجية بالمنطقة، بما فيها حظر أسلحة الدمار شامل. وقد أقر خبراء الخارجية الأمريكية المختصون بشئون الشرق الأوسط، بأن ذلك الموقف كان «جاءًا» و«صالحًا للتفاوض». وبصرف النظر عن هذا، فإن ذلك الموقف كان هو موقف ثلثي الجمهور الأمريكي تقريبًا، كما أظهر التصويت الأخير، المأخوذ في الأيام الأخيرة قبل الحرب.

إلا أن موظفي الخارجية الأمريكية أوضحوا: «بأننا لا نعلم عما إذا كانت هذه الاقتراحات أو العروض العراقية تتسم فعلاً بالجدية وبالقابلية للتفاوض أم لا». وكان سبب عدم معرفتنا بهذه العروض، أن الولايات المتحدة حذفتها من التاريخ، ومن الإعلام، بمتهى الحذق والمهارة. وبالرغم من ذلك، تبقى القضية حية في الأفق. . تبقى حية، بالرغم من إزالتها نهائيًا من المناقشات العامة، ومن الأجندة السياسية.

تركيا والأكراد

ولنتقل الآن إلى الموضوع الثانى ، وهو موضوع تركيا والأكراد . وبإدنى بدء ، فقد تعرض الأكراد إلى سلسلة طويلة من القمع والاضطهاد ، طيلة تاريخ الدولة التركية الحديثة ، إلا أنه فى عام ١٩٨٤م ، قامت الدولة التركية بشن حرب عارمة فى الجنوب الشرقى ضد السكان الأكراد .

وإذا نظرنا إلى المعونة العسكرية الأمريكية المقدمة إلى الحكومة التركية - والتي تمثل دليلاً قوياً عن مسار السياسة - سنجد أنها ازدادت بطريقة ملحوظة فى عام ١٩٨٤م ، وهو الوقت الذى بدأت فيه الحرب التركية لقمع المتمردين . بلغة أخرى ، هذه الزيادة الملحوظة فى حجم المعونة ، لم ترتبط بالحرب الباردة ، وإنما ارتبطت بالحرب التركية المضادة لحركات التمرد . وليس هذا بالأمر الغريب ، فتركيا تمثل حليفاً استراتيجياً ، ومن ثم ، فكان لها دائماً حظاً وافراً من المعونة العسكرية الأمريكية . وقد بقت المعونة عالية كما هى ، إلا أنها بلغت الذروة على امتداد التسعينيات ، مع ازدياد العمليات الوحشية . وكان عام ١٩٩٧م هو عام الذروة الحقيقية ، حيث بلغت المعونة العسكرية الأمريكية إلى تركيا ، أكثر مما بلغته طوال الفترة من ١٩٥٠م إلى ١٩٨٣م ، بالرغم من كونها الفترة التى كانت مفعمة بدوافع وأهداف الحرب الباردة . أما عن نتائج هذه المعونة الأخيرة ، فإليك الأرقام التالية : مقتل عشرات الآلاف من الأدميين ، هروب مليونى إلى ثلاثة ملايين لاجئ ، إبادة عرقية مروعة ، تدمير حوالى ثلاثة آلاف وخمسمائة قرية كردية .

٨٠٪ من الأسلحة التركية كانت تأتى من الولايات المتحدة . وبما أننا ، لا أنا ولا أنت ، نستطيع وقف هذا الأمر - ونحن الوحيدون القادرون على هذا - فإن إدارة كليتون كان لديها الحرية فى إرسال الطائرات الحربية ، الدبابات ، النابالم ، وهلم جرا ، التى كانت تستخدم فى أفقر العمليات الوحشية فى فترة التسعينيات . وما زالت هذه العمليات مستمرة . فتركيا تقوم ، بانتظام ، بعملياتها المعروفة ، سواء فى جنوب شرق تركيا ، أو عبر حدود شمال العراق ، حيث تتم العمليات العدوانية فيما يسمى بمناطق الخطر الجوى ، حيث يحتمى الأكراد بالولايات المتحدة من . . . تركيا .

وإذا ما قارنا بين العمليات التركية فى شمالى العراق ، وبين العمليات

الإسرائيلية فى جنوبى لبنان - فى ظل احتلالها الذى دام ٢٢ عاماً - سنجد تشابهاً كبيراً بينهما. ففى الحالتين، تمت العمليات الوحشية تحت عدم رضا الأمم المتحدة، ولكن تحت رضا الولايات المتحدة، مما أعطى لها فى النهاية صفة الشرعية. ويكفى العلم، بأنه فى فترة الاحتلال الإسرائيلى لجنوب لبنان، قتلت إسرائيل ما يقرب من ٤٥ ألفاً، تبعاً لمصادر لبنانية. والحقيقة. أنه لا أحد يعلم هذا؛ لأنه ببساطة لا يوجد من يحصى عدد ضحايا الولايات المتحدة، ولا ضحايا أصدقائها.

والسؤال هنا: كيف تتعامل الولايات المتحدة مع كل هذا؟ الرد بمنتهى البساطة: تتعامل بالسكوت. يمكنك معاينة ذلك وأنا أطلبك بالقيام بهذه المعاينة. وبالنسبة، فقد يقوم بعض الأدميين، غير الراضين عن هذا الوضع، بإثارة قضية أكراد تركيا، وما يتعرضون له من اضطهادات. وإذا ما خرج هذا الموضوع إلى السطح، وبات من المستحيل تجاهله، يكون رد الفعل المتعاهد عليه كالتالى: إن مؤيدى حقوق الإنسان، الذين وضعوا لأنفسهم هذا المسمى، يستنكرون ما يسمونه «فشلنا فى حماية الأكراد». والحقيقة، أننا نفشل فى حماية الأكراد، كما يفشل الروس «فى حماية الناس الذين يعيشون فى الشيشان».

أو يزعم أن الولايات المتحدة ليس لديها علم بما يحدث. وأن كليتون، عندما كان يغدق تركيا بسيل لا ينتهى من الأسلحة (فى الوقت الذى صارت فيه تركيا المتلقى الرئيسى للأسلحة الأمريكية)، كان لا يعلم، ولا مستشاروه، بأن الأسلحة سوف يتم استخدامها، وأنه لم يخطر على بالهم أبداً، ذهاب الأسلحة إلى الحرب التى كانت جارية على الساحة التركية حينذاك. وكما يقول المعلقون والمراقبون الذين يمتازون بالدقة المتناهية، فإن الذين يظهرون قضية الأكراد على السطح، ويقترحون البديل، يفتقدون النظر إلى «الفوارق الضئيلة».

وفى بعض الأوقات، يزعمون أن الولايات المتحدة غير قادرة على معرفة ذلك، فالمنطقة بعيدة عنها، فمن يعلم ماذا يحدث فى جنوب شرق تركيا؟ وللعلم فقط. فهذه المنطقة تم مسحها من قبل القواعد الجوية الأمريكية، فهناك الطائرات المسلحة نووياً، التى تقع تحت رقابة صارمة. ولكن. كيف لنا أن نعلم ما يحدث

هناك؟ وبالطبع، لا يوجد منا من يقرأ تقارير حقوق الإنسان، التي تصف، دومًا، تفاصيل ما يحدث هناك.

ولقد ذكرت، سالفًا، أنه في ظل هذه الفترة صارت تركيا المتلقى الأول للأسلحة الأمريكية في العالم، إلا أن هذا لا يطابق الحقيقة كلية. فكما نعلم، تنصدر كلٌّ من مصر وإسرائيل قائمة المتلقين. ولم تصل تركيا إلى المركز الأول، إلا في أثناء فترة حربها ضد حركات التمرد الكردي. ثم جاءت السلڤادور، لتحل فترة وجيزة محل تركيا، حيث كانت الأولى منشغلة في عمليات الذبح والقمع تجاه شعبها، الأمر الذي أوصلها في النهاية إلى المركز الأول. وما إن وصلت السلڤادور إلى هذا المركز، حتى عادت تركيا لتأخذ مكانتها ثانية.

واستمر هذا الوضع إلى عام ١٩٩٩م، حيث جاءت كولومبيا لتحتل مكان تركيا. وقد كانت كولومبيا تحتل الرقم القياسي لأسوأ سجل لحقوق الإنسان في العالم. وفي الأعوام العشرة الماضية، التي شهدت تلك السجلات المفزعة، حصلت كولومبيا على أكبر نصيب من المعونة العسكرية الأمريكية، وكذلك من التدريب الأمريكي. ولكن لماذا حلت كولومبيا مكان تركيا في عام ١٩٩٩م؟ السبب بسيط، وهو: أنه في عام ١٩٩٩م نجحت تركيا في قمع حركات التمرد الداخلية، بينما لم تكن كولومبيا قد نجحت بعد. وكان من قبيل الصدفة، أن يكون ١٩٩٩م هو العام الذي شهد تدفقًا كبيرًا للأسلحة إلى كولومبيا.

وفي وسط كل هذه الأحداث، يغمرنا فيض من عبادة الذات. . وكيف أننا نسعى وراء «المبادئ والمثل» في سبيل الدفاع عن حقوق الإنسان، خاصة في «الحالات الضرورية»، كما يقول كليتون، حيث لا نستطيع تحمل اختراقات حقوق الإنسان على مقربة من حدود الناتو. وهنا نلحظ ثانية، غياب بعض الكلمات. ظاهريًا، نحن لا نستطيع التأقلم مع اختراقات حقوق الإنسان على مقربة من حدود دول الناتو، بل لا نستطيع تأييدها ولا المشاركة فيها. . في داخل حدود الناتو. حاول أن تجد تلك الكلمات الناقصة إنك لن تجدها. . ومرة أخرى، سوف تتعلم شيئًا آخر.

إسرائيل - فلسطين

والآن . . لنذهب إلى الحالة الثالثة - إسرائيل - فلسطين . تعالوا بنا لنرى القتال الجارى حالياً، وهو ما يسمى بانتفاضة الأقصى، لتتقرب ردود الأفعال الأمريكية . وهذا هو الجزء الذى يهمنى فى المرتبة الأولى، وهو الذى يجب أن يهتمكم أنتم أيضاً بنفس الدرجة .

إن الموقف الرسمى الأمريكى، الذى كرهه السفير الأمريكى «مارتين إنديك» فى مارس ٢٠٠١م، تمثل فى التالى: «نحن لا نؤمن بمكافأة العنف»^(٥) . وكان ذلك تقريراً صارماً للفلسطينيين، مثله مثل التقارير الأخرى . ومن السهل علينا، تقدير شرعية ذلك الزعم .

بدأت انتفاضة الأقصى، والتي تمثل العنف الذى يزدريه إنديك، فى ٢٩ سبتمبر ٢٠٠٠م، وهو اليوم الذى تلا ذهاب «آريل شارون» إلى الحرم الشريف، مع حوالى ألف جندي . ومن المدهش واللافت للانتباه، أن يمر هذا الحدث بدون أى حادث كرد فعل، إلا أنه فى اليوم التالى، وكان يوم الجمعة، فوجئ الفلسطينيون، بعد فراغهم من صلاة الجمعة، بتواجد عرمرم للجيش الإسرائيلى، فبدأ بإلقاء بعض الأحجار، ثم رد الجيش الإسرائيلى بإطلاق الرصاص فوراً، الأمر الذى أدى فى النهاية إلى مقتل ستة فلسطينيين، وجرح أكثر من ٢٠٠^(٦) . وفى الأول من أكتوبر، قامت طائرات الهليكوبتر العسكرية الإسرائيلية، أو على الأصح طائرات الهليكوبتر العسكرية الأمريكية التى يقودها طيارون إسرائيليون، بتصفيد العنف، مما أدى إلى مقتل فلسطينيين فى غزة . وفى الثانى من أكتوبر، قامت الطائرات الهليكوبتر العسكرية بقتل عشرة فى غزة، وجرح خمسة وثلاثين . وفى الثالث من أكتوبر، قامت الهليكوبتر بقصف الوحدات السكنية، وأهداف مدنية أخرى . وظل الأمر يسير على هذا المنوال . . حتى أضحت هذه الطائرات، فى شهر نوفمبر، تستخدم فى استهداف واغتيال الرموز السياسية .

والسؤال هنا: ماذا فعلت الولايات المتحدة حيال كل ذلك؟ فى منتصف سبتمبر، وقبل بدء الاقتتال، أرسلت الولايات المتحدة شحنة جديدة من طائرات الهليكوبتر (المهاجمة) المتقدمة إلى إسرائيل . وكذلك فى منتصف سبتمبر، قامت

البحرية الأمريكية بالمشاركة مع وحدات النخبة فى داخل الجيش الإسرائيلى وقوات الدفاع الإسرائيلى، فى عمليات تدريبية، بهدف تأهيل القوات الإسرائيلية على إعادة احتلال الأراضى المحتلة. لقد كان دور البحرية الأمريكية، هو إمداد إسرائيل بأجهزة جديدة متطورة، لم تكن فى حيازتها.

وفى الثالث من أكتوبر، وهو اليوم الذى تحدثت فيه الصحف عن هجوم طائرات الهليكوبتر العسكرية على المساكن، قاتلة عشرات المدنيين، أعلنت الصحف الإسرائيلية، وبعدها كررت الصحف الدولية، أن الولايات المتحدة وإسرائيل وصلتتا إلى اتفاق - وهو أعظم اتفاق فى خلال العقد - يقتضى إرسال طائرات الهليكوبتر العسكرية الأمريكية إلى إسرائيل^(٧). وفى اليوم التالى، نشر الصحفيون العسكريون تقريراً يفيد بأن هذه الإرسالية تتضمن طائرات هليكوبتر هجومية حديثة، بالإضافة إلى قطع غيار، مما يزيد من القدرة على استهداف المدنيين. وبطريقة عابرة، أعلن وزير الدفاع الإسرائيلى عن عدم قدرة بلاده إنتاج طائرات الهليكوبتر. ومن ثم، فعلى إسرائيل أن تأتى بها من الولايات المتحدة. وفى ١٩ أكتوبر ٢٠٠٠م، أصدرت منظمة العفو الدولية تقريراً يلزم الولايات المتحدة بعدم إرسال طائرات عسكرية هليكوبتر إلى إسرائيل تحت هذه الظروف^(٨). وفى ١٩ فبراير ٢٠٠١م، أعلن المنتجون عن اتفاقية، أبرمت توأ بين إسرائيل والولايات المتحدة، تقضى بصفقة قيمتها نصف بليون دولار لطائرات الأباتشى الهليكوبتر المهاجمة^(٩).

وتعالوا بنا لنرى كيف قامت وسائل الإعلام بتغطية هذا الموضوع، وبالتعامل معه. سنكتشف أن هذا الموضوع لم يمر اعتباطاً فى الصحف الحرة. وكانت الإشارة الوحيدة له، فى جريدة بـ «نورث كارولينا»، عبر بريد مكتوب للمحرر^(١٠). هذا كل ما كُتب حول الموضوع

لا توجد الآن حقائق مخفية، أو غير مشار إليها. فلا يوجد مكتب أخبار واحد، فى بلادنا، لا يلم - ويمتهدى الدقة - بهذه الحقائق. وكل من يطلع على تقارير منظمة العفو، يدرك هذه الحقائق جيداً. وقد تم جذب الانتباه إليها، بطريقة ملفتة جداً، فى جريدة «بوستون جلوب»، التى تعتبر من أهم الجرائد الأمريكية اليومية، وكذلك من أكثرها ليبرالية. فلا شك، أنه لا يوجد مكتب تحرير أو أخبار، إلا

ويعرف هذه الحقائق . ولكن أولئك الذين يهيمنون على تدفق المعلومات لا يرغبون في معرفة هذه الحقائق، كما لا يرغبون في تعريفها لقرائهم . وبالطبع، لديهم أسبابهم ودوافعهم القوية، التى تتمثل فى التالى : إن إمداد الشعب بمعلومات حول ما يجرى على الساحة، باسمهم، سوف يفتح عليهم أبواباً، كان من الأفضل غلقها . . . هذا إذا كانوا يريدون الاستمرار فى سياستهم . باختصار، أن المسيطرين على دفعة المعلومات لن يرغبوا أبداً فى نشر هذه التقارير بموازاة ما يقال ويكتب عن طائرات الهليكوبتر الأمريكية، التى تستخدم فى استهداف المدنيين، والشخصيات السياسية .

إن الاستمرار فى توفير تلك الطائرات الأمريكية لإسرائيل، مع العلم بأنها ستستخدم ضد المدنيين الفلسطينيين، ومع سكوت الإعلام الأمريكى العام، ليس إلا دليلاً، من ضمن أدلة كثيرة، على مدى احترامنا لمبدأ عدم الاعتراف بمكافأة العنف . وهذا بدوره - وأقولها ثانية - يترك المواطنين الشرفاء أمام مهمتين : المهمة الأكبر، هى أن يفعلوا شيئاً تجاه ذلك، والمهمة الثانية، هى محاولتنا لفهم الأسباب الحقيقية وراء انتهاج هذه السياسات .

وبخصوص ذلك الأمر، لا أعتقد أن الأسباب تحتمل أكثر من تأويل . فمنذ أمد بعيد، والكل يعي بأن منطقة الخليج تحتوى على ثروات الطاقة الأساسية فى العالم، وأنها - من ثم - تمثل مصدراً استراتيجياً لا مثيل له، وكذلك مصدراً للشراء السريع . وأى قوة تأتى للسيطرة على المنطقة . . لن تحظى فقط بالوصول إلى هذا الشراء الهائل، ولكنها ستحظى أيضاً بالوصول إلى مرتبة قوية جداً من السيطرة والهيمنة العالمية، إذ يعتبر التحكم فى مصادر الطاقة معولاً شديد الأهمية فى العلاقات الدولية . بالإضافة إلى أن أهمية ثروة الطاقة فى منطقة الشرق الأوسط، من المتوقع أن تزداد، ربما بحدة، فى السنوات المقبلة .

إن أهمية التحكم فى النفط، تم إدراكه وقت الحرب العالمية الأولى، حيث كانت بريطانيا تمثل القوة العالمية الكبرى، والتى كانت تسيطر على معظم الشرق الأوسط، إلا أنه بعد انتهاء الحرب، لم يكن لديها القوة العسكرية التى تمكنها من الهيمنة على المنطقة - من خلال الاحتلال العسكرى المباشر . فكان عليها اللجوء إلى وسائل

أخرى . وكانت إحدى هذه الوسائل استخدام القوة الجوية ، وكذلك استخدام الغاز السام ، الذى كان يعتبر قمة الوحشية والإنسانية فى ذلك الوقت . وكان من أهم مؤيديه «وينستون تشرشل» ، الذى دعا إلى استخدامه ضد الأكراد والأفغان^(١١) .

وبالتوازى مع العنصر العسكرى لتحقيق التحكم ، كان هناك أيضاً العنصر السياسى الذى تمثل فى التنسيق السياسية . فخلال الحرب العالمية الأولى ، اقترح مكتب الاحتلال البريطانى ، ثم طبق بعد ذلك ، مشروعاً لتدشين ما يسمى بـ «الواجهة العربية» : وهى حكومات ضعيفة لينة ، تدبر السكان المحليين ، تحت الهيمنة البريطانية الكاملة ، فى حالة استفحال الأمور ، وخروجها عن دائرة التحكم . وكانت فرنسا ، فى ذلك الوقت ، أيضاً من المشاركين فى اللعبة - فقد كانت قوة كبيرة لا يستهان بها - وكذلك كانت الولايات المتحدة ، بالرغم من عدم قيادتها للعالم حينذاك ، إلا أنه كان لديها القدر الكافى من القوة الذى أهلها للمطالبة بنصيب من الكعكة . وفى عام ١٩٢٨م ، دخلت الدول الثلاث فى اتفاقية «الخط الأحمر» ، حيث قامت بتوزيع احتياطى النفط الشرق أوسطى فيما بينها . وبالطبع ، كان الغائب فى هذه المسألة . شعوب المنطقة ، التى كانت تابعة تحت هيمنة «الواجهة» . ذلك كان هو التنسيق الأساسى .

ومع الحرب العالمية الثانية ، كانت الولايات المتحدة قد وصلت إلى القمة ، فافرضة هيمنتها على العالم ، ومخططة على الاستئثار بثروات الطاقة فى الشرق الأوسط . أما بالنسبة لفرنسا وبريطانيا ، فقد استبعدت الأولى فى هدوء ، بينما قبلت الثانية - وباستحياء - دورها «كشريك صغير» ، الأمر الذى أدى فى النهاية إلى تضائل دورها تدريجياً ، عبر الوقت .

وعندما أخذت الولايات المتحدة دور المملكة البريطانية المتحدة ، أبقت المبدأ الأساسى فى هذا الدور ، ألا وهو : أن الغرب (الذى يعنى الولايات المتحدة أولاً وأخيراً) لا بد أن يسيطر على الأحداث فى الشرق الأوسط . بالإضافة إلى أن ثراء المنطقة لا بد أن يتدفق أولاً إلى الغرب ، إلى الولايات المتحدة وبريطانيا ، إلى شركات ومؤسسات الطاقة الغربية ، إلى المستثمرين ، إلى الخزائنة الأمريكية التى اعتمدت ، وما زالت تعتمد ، بشكل أساسى على إعادة تدوير الدولارات النفطية ،

إلى المصدرين ، إلى شركات الإنشاء ، وهكذا . تلك هي النقطة الجوهرية في الموضوع كله . الأرباح لا بد أن تتدفق إلى الغرب ، والقوة لا بد أن تبقى في الغرب ، في واشنطن أولاً ، لأطول حقبة ممكنة .

وقد أثار هذا المبدأ مشكلات عديدة . فكانت المشكلة الأولى تتمثل في عدم قدرة شعوب المنطقة على فهم منطق هذه التنسيقات والترتيبات . لم تستطع هذه الشعوب الاقتناع أبداً ، بضرورة تدفق ثروات المنطقة إلى الغرب ، بدلاً من تدفقها إلى الشعوب الفقيرة الكادحة . وكان الاستخدام المستمر للقوة ، هو الوسيلة الفعالة لجعلهم يفهمون مثل هذه المبادئ - وهي مشكلة تتكرر دائماً مع الشعوب الجاهلة غير المتعلمة .

وفي عام ١٩٥٣م ، حاولت حكومة وطنية ، تحت زعامة «محمد مصدق» ، تخليص إيران وإخراجها من هذا النسق . ولكن سرعان ما باءت تلك المحاولة بالفشل ، من خلال انقلاب عسكري ، قامت كلٌّ من الولايات المتحدة وبريطانيا بتمويله ، لإعادة الشاه إلى الحكم ثانية . ومن الجدير بالذكر ، أنه في أثناء الانقلاب ، قامت الولايات المتحدة بإبعاد بريطانيا ، وبدرجة كبيرة ، عن دائرة السيطرة في داخل إيران .

وبعد الانقلاب مباشرة ، ظهر نجم «جمال عبد الناصر» في المنطقة ، ليعلن خطراً عظيماً على مصالح الغرب . وبالرغم من عدم حيازة بلاده - مصر - على ثروة النفط ، إلا أن خطورته تمثلت في القومية المستقلة التي كان ينادى بها ، والتي بات رمزاً لها في كل مكان على وجه السطحية . فتحول عبد الناصر إلى «فيروس» ، بإمكانه «إصابة الآخرين» .

في تلك اللحظة ، كانت الولايات المتحدة تطور عقيدة جديدة ، لتغيير وتوسيع مفهوم النظام البريطاني القائم على واجهة عربية ، محمية من قبل قوة بريطانية . بمعنى آخر ، لقد كانت الولايات المتحدة تقوم على تدشين حلقة محكمة من الدول المحيطة ، المتواجدة على الحدود الخارجية للمنطقة ، التي يمكن أن تقدم خدماتها للولايات المتحدة كـ «رجال شرطة محليين مستعدين للضرب في أي لحظة» (وهي

كلمات مستقاة من إدارة نيكسون). فصحيح أن هناك رجال شرطة فى واشنطن، ولكن لا بد أيضاً من إيجاد «رجال شرطة محلين مستعدين للضرب». والشرطبان المتوفران فى ذلك الوقت، كانا تركيا (قوة عسكرية كبيرة)، وإيران تحت حكم الشاه.

وفى عام ١٩٥٨م، نصحت المخابرات المركزية الأمريكية بأن «اللازمة المنطقية» لمعارضة القومية العربية «تتمثل فى تأييد إسرائيل كالقوة الوحيدة المتبقية فى المنطقة، التى تناصر الغرب من ناحية، والتى يمكن الاعتماد عليها من الناحية الأخرى»^(١٢). وتبعاً لهذا التسلسل العقلى والمنطقى، فإنه يمكن لإسرائيل أن تصبح قاعدة أساسية للقوة الأمريكية فى المنطقة. وبالفعل، تم تنفيذ ذلك الاقتراح بعد ١٩٦٧م. وفى هذا العام، قامت إسرائيل بتقديم أجل خدمة إلى الولايات المتحدة - ألا وهى التخلص من ناصر، والتخلص من فيروس القومية المستقلة. وكذلك قامت بقصم ظهور الجيوش العربية، تاركة القوة الأمريكية تتألق أكثر فأكثر. وعند هذه اللحظة بالتحديد، ظهر هناك تحالف ثلاثى بين إسرائيل، وإيران، والسعودية. وبالرغم من أن السعودية كانت فى حرب تكتيكية مع إيران وإسرائيل، إلا أن ذلك لم يقف عائقاً أمام هذا التحالف. فالسعودية كان لديها النفط، وإيران كانت خاضعة للشاه، وإسرائيل كانت القوة العسكرية. وكانت باكستان وتركيا جزءاً من هذا النسق فى ذلك الوقت.

ذلك التحالف كان معترفاً به - وبوضوح - من قبل متخصصى المخابرات الأمريكية، الذين كتبوا عنه، ومن قبل الشخصيات المسئولة عن التخطيط. فمثلاً، أشار «هنرى جاكسون» - الذى كان المتخصص الأساس - من ضمن أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكى - فى شئون الشرق الأوسط والنفط - إلى أن إسرائيل، وإيران، والسعودية «تكبح وتحتوى»^(*) تلك العناصر الراديكالية وغير المسئولة فى دول عربية معينة، والتى إن تركت على حريتها، لقامت بتعريض مصادرها النفطية فى الشرق الأوسط، إلى خطر جسيم» (وهو يعنى الأرباح المتدفقة، والتى تعتبر عاملاً مؤدياً للهيمنة العالمية)^(١٣).

وقد قامت السعودية بدورها، من خلال الحفاظ على أكبر احتياطي نفط فى

(*) من سياسة الاحتواء، التى تعنى فى النهاية المحاصرة والكبت والكبح - المترجم.

العالم . بينما قامت إيران وإسرائيل ، بمساعدة تركيا وباكستان ، بتوفير القوة الإقليمية ، حيث كانت جميع هذه الدول تخدم كـ «رجال شرطة محليين على أهبة الاستعداد للضرب» . أما إذا حدث خلل ما ، فحينئذ يتم جلب اللاعبين الكبار - الولايات المتحدة وبريطانيا .

تلك كانت الصورة بحذافيرها ، قبل أن تندلع الثورة الإيرانية في عام ١٩٧٩م ، حيث قامت الدنيا ولم تقعد - فقد سقط عامود رئيسي من الأعمدة الرئيسية ، التي كانت تعتمد عليها الولايات المتحدة . لقد سقطت إيران تحت قبضة القومية المستقلة . وبالرغم من محاولات «كارتر» لإرجاع الشاه إلى الحكم ، من خلال تمويل حركة انقلابية عسكرية ، ومن خلال بعثه لجنرال الناتو ، إلا أن محاولاته باءت بالفشل . هذا بالإضافة إلى عدم قدرته على كسب تأييد حلفائه في هذا الشأن ، وهم الجيش الإيراني .

بعدها مباشرة ، قامت كلٌّ من إسرائيل والسعودية ، العامودان المتبقيان ، بمشاركة الولايات المتحدة في بذل كل الجهود المتاحة ، من أجل إحداث انقلاب عسكري ، لإعادة الأمور إلى نصابها ، وكان ذلك من خلال إرسال السلاح . الوقائع والأهداف تم إخفاؤها عن الجماهير ، إلا أن مقتطفات من هنا وهناك بدأت تصل ، بعد فترة ، إلينا ، حيث تم تسمية هذه اللعبة برمتها ، اتفاق «السلاح مقابل الرهائن» . وطبعاً ، لبس هذا الاتفاق ثوب الإنسانية : فبات من المعروف أن الريحانيين يلتزمون طريقاً لإطلاق سراح رهائن الولايات المتحدة في لبنان . أما ما كان يحدث في الواقع ، فهو إرسال الولايات المتحدة للسلاح إلى إيران - أي إلى جماعات مسلحة بعينها في إيران - من خلال إسرائيل ، التي كانت لديها ارتباطات وثيقة مع الجيش الإيراني ، الذي كانت تموله السعودية . بلغة أخرى ، أن اتفاق «السلاح مقابل الرهائن» لم يكن له وجود أو أصل ؛ لسبب بسيط : وهو أنه لم يكن هناك أية رهائن .

وفي نفس الوقت ، كانت الولايات المتحدة تؤيد صديقها صدام حسين ، في غزوه لإيران ، من أجل تحقيق نفس الهدف - وهو محاولة إبطال الخطر الداهم القادم من دولة نفطية ومستقلة في نفس الوقت ، مثل إيران . فصحيح أن عراق

صدام كانت أيضاً تتمتع باستقلال زائد عن اللزوم، الذى كان يضايق الولايات المتحدة، إلا أن الأخيرة كانت مصرة على تلقين إيران درساً، فلا تترك «جريماتها الشنعاء» - التى لم تكن محل أى عذر - تمر بسهولة. فإيران - التى كانت يوماً ما من أقوى أعمدة السياسة الأمريكية فى المنطقة - ارتكبت خطأ كبيراً، عندما رفضت وصدت الانقلاب الذى مولته الولايات المتحدة، والذى تجربته الإدارة الأمريكية منذ ٢٥ عاماً، ونجحت من خلاله فى قمع المحاولة الإيرانية للاتجاه نحو الاستقلال. ومن ثم، كان ذلك الخروج عن الطاعة الأمريكية، أمراً لا يمكن تمريره مرور الكرام، ولا يمكن التساهل معه على أية حال... وإلا ستكون «المصادقية» الأمريكية معرضة للخطر.

وبناء على هذا، بدأت الولايات المتحدة فى إرسال سفن حربية لحماية الخليج الفارسى، ومن ثم، الضمان بأن إيران لن تقدر على منع شحن النفط العراقى. إلا أن ذلك تحول، فيما بعد، إلى أمر بالغ الخطورة. فالالتزام الزائد عن اللزوم من جانب الولايات المتحدة تجاه صدام، فى ذلك الوقت، أظهر لنا حقيقة جديدة، وهى: أن العراق صارت هى الدولة الوحيدة، بجانب إسرائيل، التى لديها الحق فى الاعتداء على سفينة أمريكية بدون مساءلة، والحق فى الإفلات الكامل من المعاقبة، كما فعلت إسرائيل فى ١٩٦٧م، وكما فعلت العراق فى ١٩٨٧م، حينما قتلت ٣٧ بحاراً أمريكياً^(١٤).

بل إن التورط الأمريكى ذهب إلى أكثر من ذلك. ففي العام التالى، فى ١٩٨٨م، قامت المدمرة الأمريكية، «يو.إس.إس. فينيسيتز»، بقصف طائرة ركاب إيرانية، رحلة رقم ٦٥٥، مخلفة ٢٩٩ قتيلاً، وهى تحلق فى الفضاء الإيرانى^(١٥). لقد كانت المدمرة الأمريكية فى داخل المياه الإقليمية الإيرانية. ومن ثم، أخذت إيران الحدث مأخذ الجد والشدة. فذهب زعمائها بأن الولايات المتحدة كانت تسعى بإصرار، متتهجة أكثر الأساليب تطرفاً، إلى تأكيد بأن «صدام حسين» قد كسب الحرب ضد إيران، الأمر الذى أدى بالأخيرة، فى النهاية، إلى الاستسلام. لم تكن تلك الحادثة أمراً هيناً بالنسبة للإيرانيين، ولكنها كانت أمراً هيناً بالنسبة لنا، فهذا هو أسلوبنا الوحشى... وعدم اعتراف القوى بمسئوليته الأخلاقية هو مبدؤنا.

وكان من المنطقي، أن نتوقع تفجير طائرتنا الأمريكية «بان آم ١٠٣»، كرد فعل انتقامي لما حدث. وكان الافتراض السريع للمخابرات الأمريكية، هو أن التفجير كان انتقاماً إيرانياً لقصف الطائرة الإيرانية ٦٥٥. أما إذا أردنا الحكم على ما جرى بخصوص هذا الحادث، فأعتقد أن الأمر سيظل قيد التخمين والتأمل. وكذلك سيظل الدليل على مسئولية ليبيا عن الحادث، قيد الشك. بل الشك الشديد. فبعد أن وافقت الولايات المتحدة وبريطانيا - أخيراً - على السماح باستئناف القضية (وكانت ليبيا قد عرضت، منذ أعوام عديدة، السماح باستئناف إجراءات القضية في مكان غير منحاز) أدت الإجراءات القضائية الغربية في محكمة العدل الدولية بهولندا إلى إثارة مزيد من الشكوك لدى أولئك الذين تابعوا الأمر عن قرب، والذين لم يسمحوا بأية مناقشات حول هذا الموضوع. فمثلاً، اقتضت الضرورة إخماد تقرير قضية «لوكيربي» بهولندا، وإبعاده عن العيون، ذلك التقرير الذى كتبه المراقب الدولي الذى رشحه السكرتير العام للأمم المتحدة كوفى عنان، تبعاً لقرار مجلس الأمن ١١٩٢ (١٩٩٨م). فقد كان تقريره استنكاراً عنيفاً للإجراءات القضائية. ولنا أن نخمن، أنه إذا كان التقرير قد أدان الموقف الأمريكى -البريطانى فكيف يظهر فى وسائل الإعلام؟

وبالرغم من كل هذا، ظلت العراق - بصرف النظر عن طغيان نظامها - تمثل نوعاً من الانحراف والشذوذ. ففي ١٩٥٨م، خلصت العراق نفسها من برائن الهيمنة الأمريكية فى الشرق الأوسط، وانحرفت عن النظام الأمريكى. ثم أظهرت انحرافها مرة أخرى، عندما كانت تستخدم ثرواتها المحلية، لتصل إلى تنمية حقيقية، اجتماعية وسياسية. وهذا طبعاً لا يتوافق أبداً مع النظام الأمريكى، فالشراء فى هذا النظام لا بد له، فى النهاية، أن يصب فى الغرب، وما تفعله العراق يناقض ويبطل التوجه المطلوب للشراء. إلا أن نتيجة الحرب، بالإضافة إلى العقوبات الاقتصادية، سرعان ما أرجعت الأمور إلى نصابها، وسرعان ما أعادت تشغيل دورة المال، كما كانت للصالح الأمريكى. وهذا أدى بدوره إلى إعادة دخول العراق فى النظام الأمريكى ثانية، ولكن بدون الخوف - فى هذه المرة - من استخدام العراق لثرواتها الداخلية. فالعراق لم تعد كما كانت من قبل، وسوف تعتبر محظوظة إذا ما

استطاعت إنعاش نفسها مرة أخرى، ولو حتى جزئياً. وهنا يتبادر إلى أذهاننا السؤال التالي: هل كان ذلك كله من ضمن أهداف العقوبات، أم أنه كان من ضمن آثار العقوبات؟

ولنسأل أنفسنا الآن: ماذا عن التزامنا الأسطوري الكاذب بحقوق الإنسان؟ وكيف تُحدد حقوق الإنسان، وكيف نحددها للفاعلين المختلفين بالشرق الأوسط؟ وهنا تأتي الإجابة بمنتهى البساطة: تتحدد الحقوق على أساس الإسهامات في حفظ النظام. فالولايات المتحدة، لديها حقوق لا جدال عليها. وأما بريطانيا، فلها حقوق ما دامت تلعب دور الكلب التابع الوفي. وأما أعضاء الواجهة: الحكومات العربية، فلديهم حقوق ما داموا يسيطرون على شعوبهم، وما داموا يضمنون ذهاب الثراء إلى الغرب.

وماذا عن الفلسطينيين؟ إنهم أناس ليس لديهم أى ثراء. ليس لديهم أى قوة. ومن ثم، فليس لديهم أية حقوق. إن الأمر أشبه ما يكون بالعملية الحسابية: $2+2=4$ بل إن لديهم حقوقاً سلبية. والسبب في ذلك، أن معاناتهم وتشريدتهم في مختلف البلاد يثير الإضرابات والمعارضات في بقية أنحاء العالم.

ومن خلال هذه التأملات، يمكننا - وبمنتهى البساطة - التنبؤ بالسياسة الأمريكية في الثلاثين سنة الأخيرة. تلك السياسة التي تمثل - ولا زال يتمثل - عنصرها الأساسى في حركة رفضية متشددة «rejectionism» للحقوق الوطنية الفلسطينية. وقد قادت الولايات المتحدة معسكر الرفضين لتلك الحقوق، طيلة ثلاثة عقود كاملة. ولا تخرج ما يسمى بعملية السلام عن هذا النسق أو هذا الإطار، بل هي امتداد له.

وسأنهى كتابى بتعليق صدر عن أحد زعماء الحماثم، «شلومو بن عامى»، الذى كان رئيس المفاوضين فى عهد «يهود باراك»، وهو من حماثم العمل، ومتطرف بشكل واضح. فقبل دخوله الحكومة الإسرائيلية، أشار «بن عامى» فى كتاب أكاديمى، صدر فى عام ١٩٩٨م بالعبرية، أن الهدف من مفاوضات أوصلو هو وضع الأراضى المحتلة تحت مظلة «الاعتماد الدائم للاستعمار الجديد»^(١٦)، وهو ما يشبه، إلى حد كبير، حل البانتوستان فى جنوب إفريقيا.

ومن الجدير بالذكر ، أن يكون رجال الصناعة الإسرائيليين من ضمن أوائل المؤيدين لهذا الحل . فمنذ حوالي عشر سنوات ، وقبل اتفاقية أوسلو ، كانوا ينادون بدولة فلسطينية بهذا الشكل الذى نراه اليوم ولأسباب جوهرية ومقنعة . فالشكل الاستعماري الجديد - بالنسبة لهم - يتفق مع مصالحهم ، كما يتفق مع مصالح رجال الأعمال الأمريكيين تجاه المكسيك أو السلفادور . ففى نهاية الأمر ، يتاح لهم الاستفادة القصوى من عمالة رخيصة جداً ، بصرف النظر عن الأحوال المعيشية المذرية التى تكابدها ، أو أية منغصات أخرى لا تهتم هؤلاء الصناعيين الذين لا يهمهم سوى تحقيق الربح السريع .

وهذا الوضع لا يحسن فقط أرباحهم ، بل هو يمثل أيضاً سلاحاً فتاكاً ضد طبقة العمال الإسرائيليين ، حيث يمكن تخفيض رواتبهم ، وقمع إضراباتهم . . . وهو ما يتبعه أصحاب الأعمال الأمريكيون بشكل منتظم ، حيث يقومون بتنمية فائض من القدرات بالخارج ، ليستعملوه ضد الإضرابات الداخلية .

إن إسرائيل نفسها - وهذا ليس مفاجئاً - تتحول سريعاً نحو الولايات المتحدة ، فصارت صورة أخرى منها . وهى لديها الآن : مستويات عالية من الفقر ، فجوة هائلة بين الطبقات ، رواتب إما ثابتة أو متدهورة ، وظروف عملية تنتقل من سيئ إلى أسوأ . وكما هو الحال فى الولايات المتحدة ، يركز اقتصادها أساساً على قطاع الدولة الديناميكي ، المتخفى تحت عباءة الصناعة العسكرية . وليس من المستغرب ، أن نجد الولايات المتحدة ، بعد كل هذا ، تفضل وتحبذ الدول التى تقلدها فى شكل وتنظيم إدارتها .

* * *

الفصل الثالث

انتفاضة الأقصى

بعد ثلاثة أسابيع من المعارك الدامية في الأراضي المحتلة، أعلن رئيس الوزراء «إيهود باراك» عن تخطيط جديد، يهدف إلى تحديد الوضع النهائي للمنطقة في أكتوبر ٢٠٠٠م^(١). وفي أثناء هذه الأسابيع، تم قتل أكثر من ١٠٠ فلسطيني، من ضمنهم ٢٧ طفلاً، من خلال «الاستخدام المتعجرف لأدوات القتل المميتة المهلكة، في ظروف لم تكن فيها حياة قوات الأمن (الإسرائيلية) ولا غيرهم معرضة لخطر أو تهديد، الأمر الذي أدى في النهاية إلى قتل غير شرعي»، ذلك ما ذهبت إليه منظمة العفو الدولية، في تقريرها المفصل، الذي نادراً ما ذكرته الولايات المتحدة^(٢). إن نسبة القتلى الفلسطينيين لنظرائهم الإسرائيليين كانت حوالى ١٥ - ١، مما يبين موارد القوات الإسرائيلية المتوفرة المتفوقة حينذاك^(٣).

لم يقدم «باراك» مخططه بالتفصيل، ولكنه قدم الخطوط الأساسية المعروفة: وهى التى تتوافق مع «خريطة الوضع النهائي» التى عرضتها الولايات المتحدة- إسرائيل كقاعدة لمفاوضات كامب ديفيد، التى انهارت فى يوليو ٢٠٠٠م. ويدعو هذا المخطط، الذى يمثل امتداداً لمقترحات تيار الرفض الذى قادته الولايات المتحدة-إسرائيل فى السنوات السابقة، إلى تقسيم الأراضى التى احتلتها إسرائيل فى ١٩٦٧م إلى كانتونات، مع وضع آليات تضمن بقاء الأرض والثروات الصالحة للاستخدام (المياه بصفة أساسية) فى أيدي إسرائيل، بينما تقوم سلطة فلسطينية فاسدة وقمعية بإدارة شئون السكان الفلسطينيين، لآعبة الدور التقليدى الموكل لأولئك المتعاونين المحليين مع الحكم الاستعماري، وهو أقرب ما يشبه القيادة السوداء فى حكم البانتوستان فى جنوب أفريقيا. وتبعاً للمخطط، سيكون هناك ثلاثة كانتونات فى الضفة الغربية: كانتون فى الشمال، يشتمل على نابلس

والمدن الفلسطينية الأخرى، وكانتون في الوسط في رام الله، وكانتون ثالث في الجنوب يتركز على بيت لحم، أما أريحا فستكون معزولة. ويدعو المخطط أيضاً إلى قطع الصلات بين الفلسطينيين وبين القدس، التي تعتبر مركزاً للحياة الفلسطينية. ولا يقتصر المخطط على الضفة، وإنما يمتد إلى غزة، حيث تحكم إسرائيل قبضتها وسيطرتها على المنطقة الساحلية الجنوبية، وعلى مستوطنة في نتساريم (وهو المكان الذي شهد مؤخراً عمليات وحشية كثيرة)، فتنشر هناك أعداد ضخمة من وحدات الجيش الإسرائيلي، بالإضافة إلى الطرق التي شقت وقسمت قطاع غزة عدة تقسيمات. وبناء على هذه المقترحات، سلكت إسرائيل سلوكها الاستيطاني المتضخم، خاصة في ظل الإغداق الأمريكي، المتضخم أيضاً، من المعونات والمساعدات، وفي ظل قدرة الولايات المتحدة على تطبيق نسخة جديدة من عملية السلام بعد حرب الخليج ١٩٩١م.

وكان هدف مفاوضات كامب ديفيد الحصول على التزام رسمي فلسطيني من (السلطة الفلسطينية) بهذا المشروع. وبعد شهرين من انهيار محادثات السلام، بدأت فترة العنف. التي نعيشها حالياً. لقد برزت الاشتباكات والاحتكاكات - وهي المعروفة دائماً بتصاعداتها - حينما فوضت حكومة باراك، أرييل شارون بزيارة إلى المسجد الأقصى، في حماية ألف شرطى إسرائيلي، في يوم الخميس ٢٨ سبتمبر ٢٠٠٠ م. وشارون ليس رجلاً عادياً في الوعي الفلسطيني، بل هو رجل صاحب سجلات ثرية، وأرقام قياسية، لأشرس العمليات العسكرية، التي ترجع إلى عام ١٩٥٣م، فهو باختصار رمز لبطش وإرهاب الدولة الإسرائيلية. وكان هدف زيارته المعلن هو إظهار «السيادة اليهودية» على ساحة الأقصى، إلا أن المراسل المحنك «جرهام أوشر» أشار إلى أن «انتفاضة الأقصى»، كما يسميها الفلسطينيون، لم تندلع نيرانها على أثر زيارة شارون، وإنما على أثر التواجد العسكري العرمرم (بالإضافة إلى تدخل رجال الشرطة)، الذي قام باراك بحشده، في اليوم التالي من زيارة شارون، وهو يوم الجمعة. يوم تجمع المسلمين لصلاة الجمعة (الأسبوعية). وطبعاً، أدى ذلك إلى اشتباكات عنيفة، عند خروج آلاف المصلين من المسجد، الأمر الذي أسفر في النهاية عن مقتل ستة فلسطينيين، وجرح أكثر من مائتين.

مهما كانت أهداف باراك ، فلم تكن هناك وسيلة أفضل لإشعال المنطقة بفظائع العنف التي وقعت في الأسابيع التالية .

ويمكن قول نفس الشيء على فشل مفاوضات كامب ديفيد ، التي ركزت على موضوع القدس ، في نفس السياق . ربما كان «باروخ كيميرلينج» ، الباحث الإسرائيلي في علم الاجتماع ، مبالغاً عندما كتب في أشهر الجرائد اليومية الإسرائيلية ، «هارتس» ، أن الحل لهذه المشكلة «كان يمكن الوصول إليه في ظل خمس دقائق» ، إلا أنه كان محقاً عندما قال : «إن الأمر ، في ظل أى منطق دبلوماسي ، كان لا بد أن يكون أيسر وأسهل الموضوعات حلاً»^(٤) . إنه لمن المفهوم ، أن يرغب كلٌّ من «كليتون» و«باراك» في إخفاء ما يفعله الإسرائيليون والأمريكيون في الأراضي المحتلة ، وهو الأمر الذي يعد أكثر أهمية من المفاوضات حول القدس . ولكن لماذا وافق ياسر عرفات على هذا الأمر أيضاً؟ ربما لأنه يدرك جيداً بأن القيادات العربية تنظر إلى الفلسطينيين على كونهم أذى ، فهم لديهم مشاكل مع الاستيطان على شاكلة البانتوستان ، إلا أنهم لن يستطيعوا التهاون فيما يمت بإدارة الأماكن المقدسة . . ومن ثم تتخوف تلك القيادات من ردود فعل شعوبها . وكما تظهر لنا خبرة القرون ، على مر التاريخ ، بأنه ليس هناك أصعب ولا أشد من مجابهة المشاعر الدينية .

إن التجديد الأساسي والجوهري في مخطط «باراك» ، يتمثل في فرض الطلبات الأمريكية-الإسرائيلية بواسطة القوة المباشرة ، بدلاً من الدبلوماسية الملزمة (المُرغمة) ، حيث تكون الوسيلة أكثر شراسة وقسوة ، مع أولئك الضحايا الذين رفضوا الانصياع بأدب وذوق ، كما طُلب منهم . أما الخطوط العريضة ، فهي متفقة - في الأصل - مع سياسات تم تدشينها بطريقة غير رسمية في عام ١٩٦٨م (مخطط ألون) ، وكذلك متفقة مع مقترحات مختلفة ، تم عرضها من قبل حزبي العمل والليكود (مخطط شارون ، ومخططات حكومة العمل ، وغيرهما) . ومن المهم هنا التنويه بأن السياسات لم يتم اقتراحها فقط ، بل تم أيضاً تطبيقها بمساعدة الولايات المتحدة . وقد أقرت الولايات المتحدة تأييدها لهذا الشأن منذ عام ١٩٧١م ، عندما قامت واشنطن برفض الإطار الدبلوماسي الأساسي ، الذي كانت قد بادرت به (قرار الأمم المتحدة ٢٤٢) ، وانتهجت بعدها رفضاً أحادياً للحقوق الفلسطينية في

الأعوام التالية، الذى توهج ووصل إلى ذروته فى «عملية أوسلو». وبما أن كل هذا قد تم نقضه، بمنتهى الحنكة، فى كتب التاريخ، على يد الولايات المتحدة، فإن الأمر سيتطلب منا جهداً لكشف الوقائع الحقيقية.

وكما هو ملاحظ، فإن مخطط «باراك» يمثل صورة قاسية من التيار الرافضى المعروف للولايات المتحدة وإسرائيل. فهو يدعو إلى وقف الكهرباء، المياه، الاتصالات التليفونية، والخدمات الأخرى، والتي أصلاً لا يستفيد منها السكان الفلسطينيون - القابعون تحت الحصار - إلا أقل القليل، ولا يأخذون منها سوى الفتات. ومن المهم هنا أن نعيد إلى الأذهان، واقعاً أساسياً، استفحل منذ عام ١٩٦٧م، ألا وهو: أن النظام العسكرى الإسرائيلى قام بمنع الأراضى المحتلة من تنمية نفسها بنفسها، تنمية ذاتية مستقلة، لكى يتركها فى النهاية أسيرة للفوضى والاعتماد على الغير، وقد تجلّى هذا الوضع المذرى فى أثناء عملية أوسلو، التى أدارتها وتولتها الولايات المتحدة. وكانت سياسة «الإغلاقات» المستمرة، والتى كانت تُنفذ بمنتهى القسوة من قبل حكومات «العمل»، سبباً فى تجلّى هذا الوضع. وكما أوضحنا الصحفية المعروفة والمرموقة، «أميرة هاس»، أن هذه السياسة نشأت على يد «رايين»، عندما كان رئيساً للوزراء، «نشأت» قبل شروع حماس فى تخطيط العمليات الانتحارية. . بسنوات، (و) «أخذت تتطور عبر السنين، خاصة منذ إقامة السلطة الوطنية الفلسطينية^(٥)» ولم تكن سياسة الإغلاق هى السياسة الوحيدة - لتفعيل آلية الخنق والسيطرة - وإنما رافقتها سياسة أخرى، وهى سياسة «استيراد بضاعة فى غاية الأهمية لتحل مكان العمالة الفلسطينية الرخيصة». التى يعتمد عليها معظم الاقتصاد الإسرائيلى: استيراد مئات الآلاف من المهاجرين غير الشرعيين، من مختلف أنحاء دول العالم، عانى أكثرهم من وطأة الإصلاحات الليبرالية الجديدة، التى جلبتها «العولمة» فى ظل الأعوام الأخيرة، وهم يعيشون فى إسرائيل عيشة العبيد، المجردين من أية حقوق، كما يرد فى الصحف الإسرائيلية.

وكانت جماعة رجال الأعمال الإسرائيليين تشكل معارضة قوية وأساسية لهذا البرنامج، تلك الجماعة التى تعتمد على السوق الفلسطينية الأسيرة (صادرات سنوية تصل إلى ٢,٥ بليون دولار)، والتى صاغت علاقات مع موظفى الأمن

الفلسطيني، وكذلك مع مستشار (عرفات) الاقتصادي، لتساعدهم على خلق احتكارات تحت مظلة وموافقة السلطة الفلسطينية»^(٦). كما كانت تأمل هذه الجماعة في إيجاد مناطق صناعية بالأراضي المحتلة، تنقل إليها التلوث والأذى، مستغلة فيها القوة العاملة الرخيصة، التي ستسكنها في بنايات غير آدمية، تملكها الشركات الإسرائيلية والنخبة الفلسطينية.

إن مقترحات «باراك» - وهي تحذير أكثر منها خطة - ليست إلا امتداداً طبيعياً لما كان يحدث في السابق. هذه المقترحات تمثل امتداداً لمشروع «النقل غير المرئي»، الذي تم فحصه ودراسته لسنوات عديدة، وهو مشروع أكثر منطقية من «الإبادة الإثنية» المباشرة (التي نطلقها على العمليات التي يقوم بها العدو الرسمي). فمن السهولة جلب أناس، مفتقدين للأمل ولمعنى الحياة، إلى أرض إسرائيل، فهم لن يعارضوا أى فرصة للنجاة، أياً كان مكان النجاة. وقد تم تناول المخططات - التي تعود جذورها إلى الأهداف التقليدية للحركة الصهيونية الأصلية (على اختلاف جميع الأيديولوجيات) - في المناقشات الداخلية للحكومة الإسرائيلية في عام ١٩٤٨م، وفي الوقت الذي كانت فيه الإبادة الإثنية المباشرة تحتاح الفلسطينيين، فتوقع الموالون للعرب في داخل الحكومة الإسرائيلية **Israeli government Arabists** أن اللاجئين «سيتم قمعهم» و«سيموتون»، بينما «سيتحول أغلبهم إلى تراب آدمى، وإلى مزبلة المجتمع، ليلتحقوا في النهاية بأكثر الطبقات فقراً في الدول العربية»^(٧) والمخططات الحالية، سواء تم فرضها بالقوة أو الدبلوماسية، لديها نفس الأهداف. وهي مخططات يمكن تحويلها إلى حقيقة، إذا ما اعتمدت على القوة الكبرى المهيمنة على العالم، وعلى عقولها المفكرة.

وقد قامت «أميرة هاس» بوصف الوضع بمنتهى الدقة، بعد «إعلان المبادئ» في سبتمبر ١٩٩٣م، لتكشف الصورة على حقيقتها لكل من اختار أن يتبصر - «لقد هيمنت إسرائيل أمنياً وإدارياً» على معظم أراضي الضفة الغربية، و ٢٠٪ من قطاع غزة. لقد استطاعت:

أن تضاعف عدد المستوطنين في خلال عشر سنوات، أن توسع المستوطنات، أن تستمر في سياستها العنصرية في تخفيض حصص المياه لثلاثة ملايين فلسطيني، أن

تمنع التنمية الفلسطينية في معظم أراضي الضفة الغربية، أن تحصر شعباً بأكمله في داخل مناطق شديدة الحدودية، محاطة بشبكة من الطرق التي يستخدمها اليهود وحدهم. وفي أثناء هذه الأيام، حيث الضغوط الشديدة والقاسية على حرية التحرك في داخل الأراضي الفلسطينية، يبقى حوالى ثلاثة ملايين من الفلسطينيين مسجونين في داخل البانتوستان، حتى يستسلموا للمطالب الإسرائيلية. إن حمام الدماء، الذى يبرز أمامنا فى الأسابيع الثلاثة الأخيرة، هو نتاج طبيعى لسبع سنوات من الكذب والتضليل، كما كانت الانتفاضة الأولى هى التاج الطبيعى للاحتلال الإسرائيلى المباشر^(٨).

إن مشاريع الاستيطان والإنشاء ستستمر فى ظل التأيد الأمريكى، بصرف النظر عما سيجوز رئيس وزراء إسرائيل. وفى ١٨ أغسطس ٢٠٠٠م، لاحظت «هارتس» أن حكومتين إسرائيليتين، «رايين» و«باراك»، قد أعلنتا عن «تجميد» الاستيطان، مما يتناسب ويتلاءم مع الصورة الحمايمية التى تفضلها الولايات المتحدة، والتى يفضلها الكثيرون من اليسار الإسرائيلى. إلا أن الحكومتين استخدمتا «التجميد» لتفعيل شوكة الاستيطان، والذى تضمن إسالة لعاب المستوطنين العلمانيين من خلال الإغراءات الاقتصادية، ومن خلال إعطاء هبات فورية للمستوطنين المتطرفين دينياً. «هناك تجميد، وهناك حقائق»، كما أشار تقرير «هارتس»^(٩) الحقيقة هى أن الاستيطان فى الأراضي المحتلة زاد بمعدل أكثر من أربعة أضعاف، متماشياً بنفس سرعة التزايد فى داخل المجتمع الإسرائيلى المتواجد فى المراكز الإسرائيلية، وقد استمر هذا الوضع - وربما تزايدت حدته - فى عهد «باراك».

وقد يأتى الاستيطان جالباً معه مشاريع ضخمة للبنية التحتية، بهدف إدماج أكبر قدر من الأراضي المحتلة فى داخل إسرائيل، تاركاً الفلسطينيين فى عزلة وفى وحشة، اللهم إلا «الطرق الفلسطينية» التى تمثل مكابدة يومية للفلسطينيين.

ويأتى هنا الصحفى المشهور، «داني روبنشتاين»، ليشير قائلاً:

إن قرآء الصحف الفلسطينية يتوالد عندهم الإحساس (وهو إحساس صحيح) بأن النشاط الاستيطاني لا يتوقف أبداً. فإسرائيل تسعى باستمرار وراء إنشاء، توسيع، وفرض المستوطنات اليهودية فى الضفة الغربية وغزة. فإسرائيل تستولى

دائماً على منازل وأراض فى مناطق وراء حدود ١٩٦٧م وطبعاً يكون كل هذا على حساب الفلسطينيين، من أجل حصرهم، فى النهاية، فى ركن، ثم طردهم خارج الأراضى. بلغة أخرى، أن الهدف يتمثل فى انتزاعهم من مواطنهم، ومن عاصمتهم، القدس^(١٠).

أما قرأء الصحف الإسرائيلية، والكلام لـ «روبنشتاين»، فهم محمون من الحقائق غير السارة، إلا أن هذا لا يحدث دائماً. وفى الولايات المتحدة، تستوجب الضرورة إبقاء الجمهور الأمريكى تحت حالة من الجهل، وذلك لأسباب واضحة: أن البرامج الاقتصادية والعسكرية الإسرائيلية تعتمد أساساً على التأييد الأمريكى، الذى لا يلاقى ترحيباً محلياً، والذى سيلاقى مزيداً من عدم الترحيب، إذا ما اكتشف الجمهور الأمريكى الحقيقة.

ولمزيد من التوضيح، قام مراسل الدفاع فى جريدة «هارتس»، فى ٣ أكتوبر ٢٠٠٠م، وبعد أسبوع من القتال العنيف، بتقديم تقرير يقول الآتى: «أكبر صفقة من طائرات هليكوبتر العسكرية اشترتها القوة الجوية الإسرائيلية فى خلال عشر سنوات»، وهى اتفاقية مع الولايات المتحدة لإمداد إسرائيل بـ ٣٥ طائرة هليكوبتر (بلاك هوك) عسكرية، بالإضافة إلى قطع غيار وبديلة يصل ثمنها إلى ٥٢٥ مليون دولار، مع وقود، هذا غير طائرات هليكوبتر الأباتشى. هذه هى «أجدد وأحدث الطائرات هليكوبتر المهاجمة فى المخزون الأمريكى»، كما تضيف «الجيرو سالم پوست»^(١١).

وفى ١٩ أكتوبر، قدمت منظمة العفو الدولية تقريراً، تستنكر فيه بيع الطائرات الهليكوبتر العسكرية؛ لأن هذه «الطائرات التى وفرتها الولايات المتحدة تم استخدامها فى انتهاك حقوق الإنسان، سواء تجاه الفلسطينيين أو الإسرائيليين العرب، فى أثناء المشاحنات الأخيرة فى المنطقة»^(١٢).

لقد تم إدانة إسرائيل دولياً (مع امتناع الولايات المتحدة) «لاستخدامها الشرس والمبالغ فيه للقوة»^(١٣). حتى هذه الإدانة تتضمن قدراً نادراً من الشجب والاستنكار من قبل اللجنة الدولية للصليب الأحمر، خاصة فيما يتعلق بالهجمات التى انهالت على ١٨ سيارة إسعاف للصليب الأحمر على الأقل^(١٤). وكان رد فعل إسرائيل،

ساعاتها، أنه تم معاملتها بطريقة غير عادلة، إذ استثنت هي من ضمن الجميع، ل يتم انتقادها. وقد تستخدم إسرائيل هنا المذهب الرسمي لدى الولايات المتحدة، المعروف بـ «مذهب پاول»، بالرغم من قدمه العتيق، والذي يقول: «استخدام قوة هائلة فى وجه أى خطر قادم». أما المذهب الرسمي لدولة إسرائيل، فيسمح «باستخدام كامل للسلاح ضد كل من يعرض الحياة الآدمية للخطر، خاصة من يهدد قواتنا أو أى إسرائيلى» (المستشار العسكرى الإسرائيلى «دانييل رايسنار»)(١٥). والاستخدام الكامل للقوة - من قبل جيش حديث - يتضمن دبابات، طائرات هليكوبتر حاملة للمدافع والصواريخ، قناصين محترفين، يهدفون جميعاً إلى ضرب المدنيين (وفى الغالب الأطفال). وقد تحدث موظف بالبتاجون عن مبيعات الأسلحة الأمريكية، قائلاً إنها «لا تحمل أى تحذير بأن الأسلحة لا يمكن استخدامها ضد المدنيين»، ولكنه «أقرب أن الصواريخ المضادة للدبابات وطائرات الهليكوبتر المهاجمة لا يمكن اعتبارها - تقليدياً - أدوات للسيطرة على الجماهير»، إلا مع أولئك الأقوياء الذين يستطيعون تمرير ذلك، تحت حماية أجنحة الدولة الكبرى، «ولا يمكننا إضاعة الوقت فى معاودة تخمين إلى أى درجة يحتاج القائد الإسرائيلى للهليكوبتر ليصد هجوماً على قواته»(١٦).

ليس من العجيب، أن تقوم دولة عميلة للولايات المتحدة (إسرائيل) بانتهاج المذهب العسكرى الأمريكى، الذى ترك من الرعب والهلع، ما لا نقوى ولا نقدر على تسجيله. وبالطبع، ليست الولايات المتحدة وإسرائيل هما الدولتين الوحيدتين اللتين تنتهجان هذا المذهب، بل تستخدمه أيضاً الدول الأعداء المستهدفة، والتى سرعان ما تقع تحت مجهر الإدانة إذا ما استخدمته. ولدينا مثل، حدث مؤخراً، فى رد فعل دولة صربيا، عندما تم الاعتداء على أرضها (كما تجزم الولايات المتحدة) من قبل عصابات ألبانية - مما أدى إلى مقتل رجال شرطة صربيين، وسلب مدنيين (منهم ألبانيون) - معلنة أن هدفها هو استخراج «رد فعل غير متناسب» ليُهيّج غضب الغرب، ثم يُهيّج «الناتو» للقيام بهجوم عسكرى. ومعظم الوثائق التى صدرت، وبشراء، عن الجهات الغربية (الولايات المتحدة، والناتو، وغيرهما) تبرر قصف صربيا(١٧). وإذا افترضنا مصداقية هذه المصادر والوثائق، سنجد أن رد

الفعل الصربى - بالرغم من كونه ، وبدون شك ، غير متناسب وفى منتهى الجرم - إلا أنه لا يُقارن بالمعيار الذى احتكمت إليه الولايات المتحدة وإسرائيل فى شأن انتهاجهما للمذهب العسكرى .

وفى الصحف البريطانية ذات الاتجاه العام ، يمكننا أن نقرأ التالى :

إذا كان الفلسطينيون سوداً ، فإن إسرائيل كان لا بد أن تكون الآن دولة منبوذة ، خاضعة للعقوبات الاقتصادية التى تقودها الولايات المتحدة (وهو ما ليس صحيحاً ، للأسف الشديد) . وكان لا بد أن يُنظر إلى تنميتها واستيطانها للضفة الغربية ، على كونه نظاماً للتفرقة العنصرية ، حيث يُسمح للسكان المحليين بالعيش فى مساحة ضيقة جداً من أرضهم ، فى «بانتوستان» تُدار ذاتياً ، مع احتكار «البيض» لمصادر المياه والكهرباء . وكما كان السكان السود ، يسمح لهم بالعيش فى مناطق جنوب أفريقيا البيضاء ، فى قرى مخزية ومشينة ، فإن معاملة إسرائيل للعرب الإسرائيليين - التى تتصف بالتمييز فى مسائل الحياة والتعليم - هى أيضاً معاملة مسيئة ومخزية (١٨) .

لن تشكل تلك الخلاصة مفاجأة لأولئك الذين يبصرون الأمور بدون أدوات التعمية والتعتيم التى فرضت على بقية البشر لسنوات طويلة . وسيظل واجباً علينا ، أن نزيل هذه الأدوات . . فى أهم دولة بالعالم . وسيعتبر هذا الواجب متطلباً أساسياً لأى مجهود إيجابى ، نبذله للتغلب على التبعات التى لا يسر أحد التفكير فيها .

* * *

الفصل الرابع

الولايات المتحدة-إسرائيل-فلسطين

فى ٢٠٠١م، لاحظ عالم الاجتماع بالجامعة العبرية «باروخ كيميرلينج» التالى :
«ما كنا نخافه تحقق». اليهود والفلسطينيون واقعون الآن «تحت حالة من الارتداد إلى القبلية الخرافية... الحرب تبدو وكأنها مصير محتوم»، تبدو وكأنها حرب «شريرة استعمارية»^(١). بعد اقتحام إسرائيل لمخيمات اللاجئين الفلسطينيين فى ربيع ٢٠٠٢م، كتب «زائيف شتيرن هيل» - زميل «كيميرلينج» - «أنه فى داخل إسرائيل المحتلة... تبدو الحياة الإنسانية رخيصة». فالقيادة «لم تعد تتخرج من التحدث عن الحرب، بينما هى فى حقيقة الأمر متورطة فى أعمال الشرطة الاحتلالية، مما يعيد إلى ذاكرتنا اقتحام الشرطة البيضاء للمناطق السوداء الفقيرة فى جنوب أفريقيا، فى أثناء فترة التفرقة العنصرية»^(٢). ويؤكد المثان على أمر واضح: لا يوجد هناك توافق بين «الجماعات الإثنية الوطنية»، التى ارتدت تجاه القبلية. إن الصراع متمركز فى أراض، ظلت قابضة تحت احتلال عسكري غاشم، طيلة ٣٥ سنة... تعامل فيها المحتل - صاحب القوة العسكرية الكبرى - بتأييد هائل من قبل القوة الكبرى، سواء كان هذا التأييد عسكرياً، أو اقتصادياً، أو دبلوماسياً. أما المقيمون فى تلك الأراضى، فهم يقفون وحدهم بدون سلاح، الكثير منهم يعيشون بالكاد فى مخيمات مزرية وبائسة، وهم يعانون حالياً أشد أنواع الإرهاب الدامى الشرس، التى تحملها تلك الحروب «الشريرة الاستعمارية»، الأمر الذى يدفعهم الآن إلى القيام بعمليات وحشية فى حق أنفسهم، كنوع من الانتقام.

وبالرغم من أن «عملية» أوسلو «السلمية» قد غيرت الشكل الخارجى

للاحتلال، إلا أنها لم تغير المفهوم الأساسي . فقبيل انتقال الحكومة إلى «إيهود باراك»، كتب المؤرخ «شلومو بن عامى» قائلاً : إن «اتفاقيات أوسلو قد أسست على قاعدة الاستعمار الجديد، حيث يصير طرف معتمداً على الطرف الآخر مدى الحياة»^(٣). وبعدها، صار «بن عامى» مهندساً للمقترحات الأمريكية-الإسرائيلية فى كامب ديفيد، فى صيف ٢٠٠٠م، والتي بقت ملتزمة بشرط الاعتماد على الآخر . وقد تم الثناء على هذه المقترحات، وبشدة، فيما كتبه المعلقون الأمريكيون . كما تم إلقاء اللوم والتقريع على الفلسطينيين، وعلى قائدهم الشرير، لكونهم أفسلوا المحادثات، مما أدى إلى العنف المتتالى . ويعلق «كيميرلينج» قائلاً : إن هذا «غش وتدليس»، مضيقاً صوته إلى بقية المعلقين المحترمين الجادين^(٤).

قدم مقترح كليتون-باراك بعض الخطوات التى تساهم فى تفعيل الاستيطان ذى الشكل «البانتوستانى» . فقبيل قمة كامب ديفيد، كان فلسطينيو الضفة الغربية محصورين أو محبوسين فى أكثر من ٢٠٠ منطقة متبعثرة، فجاء هذا المقترح ليحقق تحولاً إيجابياً، الذى تمثل فى : تعزيز ثلاثة كانتونات، تحت الهيمنة الإسرائيلية، منفصلة عن بعضها البعض، وكذلك منفصلة عن المقاطعة الرابعة (شرق القدس)، التى تعتبر مركزاً للحياة والاتصالات الفلسطينية فى المنطقة . أما فى غزة، الكانتون الخامس، فقد ترك الأمر بدون توضيح، اللهم إلا أن يبقى سكانها محصورين ومسجونين، كما كانوا من قبل . ومن المعروف، ومن المدرك جيداً، ألا نجد الخرائط أو التفاصيل - التابعة للمقترح - لها مكاناً فى وسط الاتجاه الأمريكى السائد .

لا يشك أحد فى أن الدور الأمريكى سيظل وسيبقى حاسماً وفاصلاً . ومن ثم، فإنه من المهم جداً أن نفهم ماهية هذا الدور، طيلة السنوات السابقة، وكيفية إدراكه فى الداخل . وفى جريدة «النيويورك تايمز»، أثنى المحررون على خطاب الرئيس، وكذلك على «ثاقب رؤيته الجديدة»، والتى كانت إحدى عناصرها «إنهاء الإرهاب الفلسطينى»، فى أسرع وقت ممكن . وبعدها، برزت كلمات مثل «التجميد، الانسحاب إلى الورا»، المستوطنات اليهودية، التفاوض بشأن الحدود الجديدة»،

وهي كلمات كان الهدف منها إنهاء الاحتلال ، وإتاحة الفرصة لإقامة دولة فلسطينية . فإذا انتهى الإرهاب الفلسطيني ، فسيتشجع الإسرائيليون «لأخذ العرض التاريخي الذي عرضته جامعة الدول العربية ، والذي يتلخص في سلام واعتراف كاملين مقابل انسحاب إسرائيلي ، أكثر جدية» . ولكن ، على القيادة الفلسطينية أن تظهر أولاً أنها «شريك دبلوماسي شرعي»^(٥) .

وهذه الصورة تم نسخها واقعياً من الثمانينيات ، حينما حاولت كلُّ الولايات المتحدة وإسرائيل - وبإصرار شديد - التملص من عروض منظمة التحرير الفلسطينية ، المتعلقة بالتفاوض والتسوية السياسية ، حيث أكدت الدولتان أنه «لا وجود لدولة فلسطينية إضافية» (على اعتبار أن الأردن دولة فلسطينية) ، وأنه «لا تغيير في وضع غزة وأريحا ، إلا فيما يتفق مع الخطوط الأساسية للحكومة (الإسرائيلية)»^(٦) . كل هذه الأمور لم يتم نشرها في الصحف الأمريكية التابعة للاتجاه السائد ، كما كان الحال دائماً من قبل ، إلا أن هذا لم يمنع المعلقين الأمريكيين من لمز ونقد الفلسطينيين ، باعتبارهم مؤدلجين فكرياً تجاه الإرهاب ، وباعتبارهم أيضاً محبطين للمحاولات الإنسانية الأمريكية .

إن الحائل الأساسي «للرؤية الثاقبة الجديدة» يكمن - وسيظل كامناً - في الاتجاه الرفضى الأحادى الأمريكى . فلم يوجد ، حقيقة ، شئ جديد فى «العرض التاريخي» الذى قُدم فى مارس ٢٠٠٢ م . ذلك العرض الذى أعاد وكرر نفس المعانى الأساسية التى أطلقها قرار مجلس الأمن فى يناير ١٩٧٦ م ، والذى وقفت وراءه جميع دول العالم ، بما فيها الدول العربية ، والمعسكر السوفييتى ، وأوروبا - باختصار كل من كان يهمه الأمر . إلا أنه طبعاً قوبل بالرفض من جانب إسرائيل ، وبالنقض من جانب الولايات المتحدة ، التى استخدمت حقها فى القيتو . . ومن ثم ، تم نقضه تاريخياً . وقد طالب القرار بتسوية سياسية على الحدود المعترف بها دولياً «بترتيبات مناسبة . . . من أجل ضمان . . . السيادة ، وحدة أراضي ، والاستقلال السياسى لجميع الدول فى المنطقة ، وحقهم فى العيش فى سلام ، فى نطاق حدود

آمنة ومعتترف بها»-وهو ببساطة تعديل لقرار الأمم المتحدة ٢٤٢ (كما تفسره الولايات المتحدة رسميًا)، مع إدراجه للدولة الفلسطينية. وقد قدمت الدول العربية، ومنظمة التحرير الفلسطينية، وأوروبا مبادرات مشابهة، والتي تم رفضها وصدها من قبل الولايات المتحدة، والتي أيضًا تم حذف أغلبها من المناقشات العامة.

ولا نتعجب، عندما نجد أن المبدأ الأول والأخير للاحتلال تمثل في الامتهان المتواصل والمذرى للكرامة الإنسانية، إلى جانب عمليات التعذيب، والإرهاب، وتدمير الممتلكات، والتشريد، والاقتلاع، والاستيطان، والاستيلاء على الثروات الأساسية، مثل المياه. وطبعًا، تطلب هذا مددًا أمريكيًا جازفًا، ممتدًا طوال سنوات كليتون-باراك. وكما أقرت الصحف الإسرائيلية، «فإن حكومة باراك تعطي لشارون قدرًا مذهلاً من الصلاحيات»، «حيث شهدنا بناء أكبر عدد من المنازل في الأراضي منذ تولى شارون وزارة الإنشاء والاستيطان في ١٩٩٢م، قبيل أوصلو». وتم تمويل هذه المستوطنات من قبل دافع الضرائب الأمريكي، الذي وقع تحت تأثير حكايات الغش والتدليس - حكايات «الرؤى» و«العظمة» - التي كانت تقصها عليه القيادة الأمريكية، والتي تضمنتها أيضًا حكايات الإرهابيين، مثل عرفات، الذين خانوا «ثقتنا». . . وربما أيضًا حكايات بعض المتطرفين الإسرائيليين الذين يبالغون في جرائمهم.

أما عن كيفية عودة عرفات إلى استعادة «ثقتنا»، فيتم توضيحها ببلاغة من قبل «إدوارد ووكر»، الموظف بوزارة الخارجية الأمريكية، والمسئول عن المنطقة تحت إدارة كليتون. إن عرفات المنشق، عليه أن يعلن بمنتهى الوضوح والصراحة «أننا نضع مستقبلنا ومصائرنا في أيدي الولايات المتحدة»، التي قادت حملتها لتقويض الحقوق الفلسطينية طيلة ثلاثين عامًا^(٧).

وثمة تعليقات جادة، بل أكثر جدية، اعترفت بأن «العرض التاريخي» «مشروع فهد السعودي» لعام ١٩٨١م، هو المشروع الذي قوّض - كما كان يُزعم دائمًا - الرفض العربي لقبول الوجود الإسرائيلي. إلا أن «مشروع فهد» قد تم

تقويضه من قبل رد فعل إسرائيل ، والذي أنكرته صحف التيار العام ، واصفة إياه بالرد «الهيستيري» . فقد حذر «شيمون بيريز» من هذا المشروع ، باعتباره «تهديداً لصميم الوجود الإسرائيلي» . «ثم قام الرئيس الإسرائيلي «حاييم هيرتسوج» بإدانة منظمة التحرير الفلسطينية ، معتبراً إياها «المؤلف الحقيقي لمشروع فهد» ، بل إن «هيرتسوج» اعتبر هذا المشروع أكثر خطورة من قرار مجلس الأمن في يناير ١٩٧٦م ، والذي اعتبره أيضاً «هيرتسوج» - وهو الذي كان يشغل ساعتها منصب سفير إسرائيل بالأمم المتحدة - «معداً» من قبل منظمة التحرير الفلسطينية^(٨) . وبالرغم من وقوف الأخيرة وراء المشروعين ، إلا أن كل هذه الاعتبارات ليس لها أى دليل من الصحة ، ولكنها تعكس فى نفس الوقت مدى الرعب الذى استولى على قلوب وعقول الحماثم الإسرائيلية ، حيال التسوية السياسية ، بالرغم من وجود ذلك التأييد الأمريكى القاطع لها . إن المشكلة الأساسية ، إذن ، تعود إلى واشنطن ، التى طالما أيدت الرفض الإسرائيلى للتسوية السياسية ، بالرغم من أن التسوية السياسية كانت تحظى بإجماع دولى واسع ، وبالرغم من إعادتها مراراً وتكراراً فى «العرض التاريخى لجامعة الدول العربية» .

وقد تقوم الولايات المتحدة حالياً بإجراء بعض التعديلات على سلوكها «الرفضى» للحقوق الفلسطينية ، إلا أنها ، فى النهاية ، ليست إلا تعديلات تكتيكية وبسيطة جداً . ففي الوقت الذى تم التخطيط فيه لضرب العراق ، سمحت الولايات المتحدة بقرار من قبل الأمم المتحدة ، يدعو إلى الانسحاب الإسرائيلى من الأراضى التى احتلت حديثاً «بدون تأخير» - بمعنى آخر «فى أسرع وقت ممكن» ، كما أوضح وزير الخارجية «كولين پاول» . فالإرهاب الفلسطينى لا بد أن ينتهى «فى أقصى سرعة» ، أما الإرهاب الإسرائيلى ، وهو الأشد ضراوة ، وهو المستمر منذ ٣٥ عاماً ، فلا بأس من أن يأخذ وقته . وفى لحظتها ، صعدت إسرائيل ضرباتها للفلسطينيين ، الأمر الذى جعل «پاول» يقول التالى : «أنا سعيد لسماعى ما يقوله رئيس الوزراء عن تعجيله فى عملياته»^(٩) . وقد توجد شكوك كثيرة حول تأخير قدوم «پاول» إلى إسرائيل ، وأن هذا التأخير لم يكن إلا «لتعجيل» العمليات الشارونية ضد الإرهاب الفلسطينى .

وكذلك سمحت الولايات المتحدة بقرار للأمم المتحدة الذى ينادى بإيجاد «رؤية»

لدولة فلسطينية^(١٠). إلا أن حتى هذه الإملاء، التي لاقت الكثير من التهليل، لا تنهض ولا ترقى للمستوى الذى وصلت إليه دولة جنوب أفريقيا منذ أربعين عامًا، حينما قام النظام العنصرى بتنفيذ «رؤيته» للدول التى يديرها السود.

وفى نفس الوقت، تواصل الولايات المتحدة «تعزيزها للإرهاب» - وهو ما اقتبسناه من كلمات الرئيس جورج دبليو بوش - من خلال إمداد إسرائيل بوسائل الإرهاب والتدمير، والتى تتضمن شحنة جديدة من أحدث طائرات الهليكوبتر فى الترسانة الأمريكية^(١١).

وفى ديسمبر ٢٠٠١م، تم توضيح هذا الالتزام الأمريكى نحو «تعزيز الإرهاب»، حينما استعملت الإدارة الأمريكية حقها فى القيتو، رافضة قرار الأمم المتحدة الذى طالب بتنفيذ خطة ميتشيل، والذى طالب بإرسال مراقبين دوليين للنظر فى تخفيض حدة العنف، وهو الأمر الذى أيد بشدة عالميًا، ولكنه رُفض بشدة إسرائيلياً، وعوق بشدة أمريكياً^(١٢). لقد استُخدم القيتو الأمريكى فى أثناء فترة «هادئة» - فترة امتدت إلى ثلاثة أسابيع، لم يتخللها سوى مقتل جندى إسرائيلى واحد، مع مقتل ٢١ فلسطينياً منهم سبعة أطفال، فى ظل ١٦ عملية اقتحامية إسرائيلية فى داخل أراض تحت الحكم الفلسطينى^(١٣). وقبل عشرة أيام من القيتو، قاطعت الولايات المتحدة - ومن ثم أحبطت - مؤتمراً دولياً فى جنيف؛ لأنه استدل فى النهاية بأن «ميثاق جنيف الرابع» ينطبق على الأراضى المحتلة، ومن ثم، فكل ما تفعله الولايات المتحدة وإسرائيل يعد «نقضاً مستفحلاً للميثاق» - يعد «جريمة حرب» بأبسط المعانى. لقد شدد المؤتمر خاصة على مسألة المستوطنات الإسرائيلية الممولة من قبل الولايات المتحدة، فأعلن عن عدم شرعيتها، كما أنكر وأدان استخدام «القتل المقصود، التعذيب، الترحيل غير القانونى، الحرمان المقصود من حقوق المحاكمة العادلة والمنظمة، والتدمير الموسع والاستيلاء بالقوة على الممتلكات... وغيرها من الأمور التى تتم بطرق غير شرعية»^(١٤). إن الولايات المتحدة مطالبة، من خلال اتفاقية جليلة ومقدسة، بمحاسبة أولئك المسئولين عن تلك الجرائم، بما فيهم القيادة الأمريكية نفسها... إلا أن كل هذا يمر فى صمت وسكون.

وطبعًا لم تسحب الولايات المتحدة، رسميًا، اعترافها بتطبيق موثيق جنيف على الأراضي المحتلة، وكذلك لم تسحب رسميًا اعترافها بشجب وتقريع الانتهاكات الإسرائيلية، ووصفها «بالقوة المحتلة». وفي أكتوبر ٢٠٠٠م، أعاد مجلس الأمن تأكيده بخصوص الإجماع على هذا الأمر، «داعيًا إسرائيل، القوة المحتلة، إلى الالتزام بمسئولياتها القانونية التابعة لميثاق جنيف الرابع»^(١٥). كانت نتيجة التصويت ١٤-٠. امتنع كليتون عن التصويت، ربما لعدم رغبته في نقض أو منع أحد أهم المبادئ الأساسية للقانون الدولي الإنساني، خاصة في ضوء الظروف التي تم فيها سن هذا القانون: وهي تجريم وحشية النازيين رسميًا. كل هذا تم إيداعه ثانية في خزانة الذكريات، مما يمثل إسهامًا آخر «لتعزيز الإرهاب».

وحتى يتسنى لتلك الأمور، بالدخول في حيز المناقشات، لفهم معناها ومغزاها، سيظل استدعاء «الولايات المتحدة للتدخل في عملية السلام» عديم المعنى، كما ستبقى التأملات والتوقعات بشأن المستقبل كالحلة وبهاة.

* * *

الفصل الخامس

عالم متغير؟

إعادة التفكير في الإرهاب

بعد ٩/١١

إن «الحرب على الإرهاب»، التي تم إعلانها من قبل الولايات المتحدة بعد ١١ سبتمبر، هي حرب معلنة للمرة الثانية. أما الإعلان الأول، فقد بدأ منذ عشرين عاماً، عندما قدم «ريجان» إلى الرئاسة الأمريكية، معلناً أن الحرب على الإرهاب ستصبح عامود وأساس السياسة الخارجية الأمريكية، خاصة الإرهاب الدولي الذي تقف وراءه الدول، وهو الذي يعد «أشرس وأشر أنواع الإرهاب» (ريجان)، وهو مرض استشرى على يد «أولئك المحرومين المعارضين للحضارة نفسها»، «ليعودوا إلى حياة البربرية والهمجية في العصر الحديث» (وزير الخارجية جورج شولتز)^(١). وقد أشار «ريجان» هنا إلى الشرق الأوسط، في وقت (١٩٨٥م) أضحى فيه الإرهاب في المنطقة هو الموضوع رقم واحد، الذي يشغل بال المحررين. إلا أن «شولتز» حذر من قرب ناقوس الخطر للأراضي الأمريكية، والذي بات يدق أجراسه، فيدوى صوته، أعلى من أى صوت آخر، لقد أخبر «شولتز» الكونغرس عن «سرطان يتواجد هنا على أرضنا»، فصرنا أمام دولة تجدد علناً أهداف «كفاحي» «لأدولف هتلر»^(٢).

ويستطرد «شولتز» محذراً: علينا «استئصال» «سرطان» نيكاراغوا^(٣). وفي ضوء جسامه الشر، وضخامة الخطر، علينا ألا نشغل أو نلزم أنفسنا بالضغط والقيود الأخلاقية: «فالمفاوضات تعبير لطيف للاستسلام، إذا لم ترم القوة ظلها على طاولة المفاوضات» - كما يعلن «شولتز» - شاجباً ومديناً أولئك الذين يقفون وراء «الوسائل الطوباوية والشرعية، مثلما تفعل الأمم المتحدة والمحكمة الدولية،

متجاهلين عنصر القوة في المعادلة»^(٤) . لقد كانت الولايات المتحدة تمارس «عنصر القوة في المعادلة» مع قوات المرتزقة المتمركزة في «هوندوراس» ، حيث كان «جون نيجروپونت» هو المسئول ساعتها ، مانعة أية جهود - سواء للمحكمة الدولية أو دول أمريكا اللاتينية - تسعى للأخذ «بالوسائل الطوباوية الشرعية» .

أما في الحرب الجديدة على الإرهاب ، فيقوم «دونالد رامسفيلد» بقيادة جناحها العسكرى . ومن الجدير بالذكر ، أن «رامسفيلد» كان مثل «ريجان» الخاص فى الشرق الأوسط . كما يقوم «نيجروپونت» بتولى الجهود الدبلوماسية فى الأمم المتحدة . والأمر لا يقتصر على هاتين الشخصيتين ، وإنما يمتد إلى شخصيات أخرى ، كانت ذات مراكز قيادية فى الحرب الأولى ، وأضحت الآن (فى الحرب الحالية) ، وللمرة الثانية ، تحتل أدواراً محورية . باختصار ، أن العالم لم يتغير كثيراً منذ الحرب الأولى على الإرهاب ، وأن استمرار القيادات يوحى بأن الحرب الأولى على الإرهاب لا بد أن يكون لها دروس نافعة ، تُستقى وتُعلم .

وقبل الدخول فى تلك الدروس ، هناك بعض الأسئلة الأولية التى يجب أن نضعها فى الاعتبار : (١) ما هو الإرهاب ؟ ، (٢) وما هو رد الفعل الصحيح له ؟ . والإجابة على السؤال الثانى ، يجب على الأقل أن توافق البديهية الأخلاقية ، وهى : أنه إذا كانت بعض التصرفات خاطئة فى حق الآخرين ، فهى خاطئة فى حقنا ، وإذا كانت صحيحة لنا ، فهى صحيحة للآخرين .

بالرغم من أن السؤال الأول يعكس عراقيل كثيرة ، إلا أن له إجابات بسيطة وكافية فى نفس الوقت ، مثل الإجابة التى قالها «ريجان» و«شولتز» ، حينما كانا يتحدثان عن إدانتهم اللادعة للإرهاب : الإرهاب هو «الاستخدام المحسوب للعنف ، أو التهديد بالعنف ، للوصول إلى أهداف ، لها طبيعة سياسية ، دينية ، أو أيديولوجية . . . من خلال التهيب ، الإجبار ، بث الخوف»^(٥) .

هناك الكثير من التوضيحات . . . و ١١ سبتمبر ، خاصة ، تحمل مثلاً مفاجئاً . الحالة الأخرى تتمثل فى رد الفعل الرسمى التابع للولايات المتحدة وبريطانيا ، والذى أعلنه «أدميرال سير ميخائيل بويس» (رئيس أركان الدفاع البريطانى) ، حيث أخبر الأفغانيين أن الهجمات الأمريكية البريطانية سوف تستمر «حتى يعترف أهل

البلاد أنفسهم أن هذا الأمر سيبقى حتى يقوموا بتغيير قيادتهم»، وهو ما يتفق ويتمشى مع المعنى الرسمي للإرهاب الدولي^(٦). إن الممارسات التي اتخذها «بويس»، مع زملائه في واشنطن، اجتازت كل المعايير. لقد اتخذوها، وهم يتوقعون بأنها ستضع أعداداً هائلة من المدنيين تحت ضغوط ومخاطر حقيقية من الجوع والتشرد، بل ستضع الملايين أمام ظروف قهرية، غير محتملة.

وتبدو كلمات «بويس» معروفة ومألوفة: فهو أعاد صياغة ما كتبه رجل الحكومة الإسرائيلي «أبا إيان»، بعد إعلان الحرب الأولى على الإرهاب، مباشرة. لقد كان «إيان» يرد على استفسارات رئيس الوزراء «مناحم بيجين» حول العمليات الوحشية التي ارتكبتها حكومة «العمل» في لبنان، والتي وصفها قائلاً، «حكومات لا يستطيع الأستاذ «بيجين» ولا أنا ذكرها بالاسم»، إلا أنه أضاف التبرير المعهود، قائلاً: «لقد كان هناك توقع منطقي، أن الشعوب المجنى عليها سوف تبذل ضغوطاً لإنهاء الاعتداءات»^(٧). وفي نفس الوقت، وفي ظل تأييد أمريكي قاطع، كانت إسرائيل تقوم بعمليات عسكرية في لبنان، ساعية لإظهار تبرير وراء احتلالها المخطط في عام ١٩٨٢م، ذلك الاحتلال الذي قامت به إسرائيل بهدف ردع التهديد بأى تسوية دبلوماسية غير مرغوب فيها من قبل الولايات المتحدة وريبتها، ولكن مرغوب فيها من قبل العالم كله. وعندما فشلت الاستفزازات الإسرائيلية، ولم تؤت ثمارها، قامت إسرائيل بالاحتلال، تحت مظلة التأييد الأمريكي، العسكري والدبلوماسي، مما أدى إلى مقتل ١٨ ألف نفس. وطيلة عشرين عاماً، وإسرائيل مصرة على احتلالها لمعظم الأراضي اللبنانية، متتهكة أوامر مجلس الأمن، عازمة على الاستمرار في إرهابها، بشكل منتظم. وكان عام ١٩٨٥م، هو عام الذروة، الذي شهد أفظع وأبشع عملية وحشية إرهابية، طيلة عقدي الاحتلال، حيث قام «شيمون بيريز» بقيادة عملية «القبضة الحديدية» التي صبت اعتداءاتها على «القرويين الإرهابيين»، باعتبارهم مقاومين للاحتلال.

حادثة مروعة أخرى، شهدها عام ١٩٨٥م، كانت في بيروت. أمام مسجد، والتي أسفرت عن: مقتل ٨٠، وجرح أكثر من ٢٥٠، معظمهم من البنات والنساء، بالإضافة إلى عمليات وحشية أخرى، تم وصفها ببساطة في الصحف الوطنية الأمريكية. وكانت المخابرات المركزية الأمريكية، بتأييد بريطاني سعودي،

وراء تنظيم هذه الجريمة، التي استهدفت قتل عالم دين مسلم، والذي استطاع أن يفلت من أيديهم في النهاية. وأخيراً، كانت حادثة التفجير الإسرائيلي في تونس هي آخر ما شهده عام ١٩٨٥م، حيث تم قتل ٧٥ فلسطينياً وتونيسياً، بدون أي تبرير مقنع، وقد نشرت نتائج هذه الحادثة المرحبة في تقرير، أعده الصحفي «أمون كابليوك» في إسرائيل، المعروف بشرفه ونزاهته المهنية^(٨). ولقد ساهمت الولايات المتحدة في الأمر، وتعاونت معه، من خلال عدم تحذيرها لحليفها التونسية بقدم المفجرين الإسرائيليين إليها. وأخير «شولتز» إسرائيل بأن واشنطن «لديها تعاطف حقيقي» مع ما فعلته، إلا أنه تراجع عن إعلان هذا التعاطف، والتصريح به، حينما قام مجلس الأمن باستنكار عملية التفجير علانية، ووصفها على أنها «اعتداء مسلح» (الولايات المتحدة رفضت التصويت)^(٩) وبعدها بأيام قليلة، قدم «شيمون بيريز» إلى واشنطن، حيث شارك الرئيس «ريجان» في استنكار، وفي شجب الإرهاب الشرير الشرس^(١٠).

كل هذه الممارسات الإسرائيلية لا تدخل أبداً في نطاق الإرهاب الدولي، وذلك لسبب جوهري، وهو: أن الإرهاب هو ما يوجه إلينا وما يستهدفنا، بغض النظر عما نفعله نحن معهم. ومن ثم، فلم يكن هناك أية تعليقات حول استنكارات «ريجان» و«بيريز»، التي أطلقاها ضد إرهاب الشرق الأوسط، والتي أطلقاها بعد تسلمهما الجائزة، وكذلك لم يكن هناك أية تعليقات حول وصف الولايات المتحدة وبريطانيا لعملياتهم في داخل أفغانستان.

وتتكرر المأساة في العمليات الأمريكية ضد نيكاراغوا، «لاستئصال هذا السرطان» من على وجه السطحية. وحالة نيكاراغوا لا جدال عليها: فقد استخدمت الولايات المتحدة القوة معها بطريقة غير شرعية، وعلى أثرها حكمت المحكمة الدولية بإدانة هذا التصرف، ثم أقر مجلس الأمن قراراً يدعو جميع الدول إلى مراقبة القانون الدولي والالتزام به (امتناع بريطانيا عن التصويت، وإعلان الفيتو الأمريكي)، باختصار، أن حالة نيكاراغوا لا جدال عليها في وسط أولئك الناس الذين يكونون بعض الاحترام والتقدير لحقوق الإنسان، والقانون الدولي^(١١). ومن ثم، قامت المحكمة الدولية بإصدار الأمر تجاه الولايات المتحدة بإنهاء هذه الجريمة، ويدفع تعويضات كافية. إلا أن الولايات المتحدة ردت بفعل معاكس ومناقض، من

خلال تصعيدها للحرب، وإصدارها - لأول مرة - أوامر رسمية بالهجوم على «أهداف ناعمة رقيقة» - الأهداف المدنية المعزولة عن السلاح والحماية - وتجنب القتال مع الجيش. وطبعاً، كل هذا لم يتم إدراجه في «سنوات الإرهاب»، وهى الكتب التى ترصد العمليات الإرهابية سنوياً^(١٢).

ولنتنقل إلى كوبا، حتى تكتمل الصورة. فباعتبارها كانت الهدف الأول للإرهاب الدولى، وصلت كوبا إلى مستويات «مرموقة» فى «عملية كنىدى مونجوز»، وظلت كذلك حتى نهاية التسعينيات. وبالرغم من ظهور الحرب الباردة فى الخلفية، كتبرير لما كانت تفعله الولايات المتحدة مع كوبا، إلا أن ذلك التبرير لم يكن صحيحاً. فالعمليات الإرهابية، والقرار السرى لقلب الحكومة الكوبية، سببا أى علاقة مع الاتحاد السوفيتى. ففى السر، كان التهديد الكوبى يوصف على كونه «انتشاراً لفكرة «كاسترو» التى تنادى بأخذ زمام الأمور فى أيدينا»، وهو الأمر الذى غالباً ما سيشرح «الفقراء وغير المتميزين» فى دول أخرى، باعتباره «يسعون حالياً وراء اقتناء فرص لحياة أفضل» (آرثر شليزنجير يقر بما انتهى إليه الرئيس كنىدى عن مهمته تجاه أمريكا اللاتينية، مما سيفيد الرئيس القادم)^(١٣). إن الصلة الوحيدة بالاتحاد السوفيتى تمثلت فى «كون الاتحاد السوفيتى يطير بجناحيه»، مغدقاً قروصاً هائلة على عمليات التنمية، ممثلاً نفسه كنموذج لتحقيق الحداثة فى ظل جيل واحد^(١٤). أما كوبا، فستظل وستبقى رسمياً «دولة إرهابية»، متهمة بتأييدها للإرهاب الدولى.

وبالرغم من أن الأقوياء يحمون أنفسهم من تلك الوقائع غير المرغوب فيها، إلا أنهم، من المؤكد، لديهم خبرة مع الضحايا (حادث ١١ سبتمبر). وبالرغم من الاستنكار العالمى للعمليات الإرهابية فى ١١ سبتمبر، إلا أن الذكريات الأليمة كانت مصاحبة لها باستمرار. فها هو الصحفى الهنمى «ريكاردو ستيفيتز»، على سبيل المثال، يتذكر ذلك الحادث، الذى شهد مقتل حوالى ألف نفس بريثة (جرائم غربية، ومن ثم غير مدروسة فى الأدبيات)، حينما قام «جورج بوش ١» بتفجير بار «شوريلو» فى ديسمبر ١٩٨٩م، من ضمن «عملية السبب العادل»، بهدف خطف ذلك العاصى العاق، الذى حكم عليه بالسجن مدى الحياة فى فلوريدا؛ بسبب جرائم ارتكبها فى فترة عمله بالمخابرات المركزية الأمريكية^(١٥). أما «إدواردو

جالينو»، فقد لاحظ أن موقف واشنطن المضاد تجاه الإرهاب لا يبدو مقنعاً لأولئك الذين يتذكرون جيداً الإرهاب الدولي الذى أججته الولايات المتحدة فى كل من «إندونيسيا، كمبوديا، إيران، جنوب أفريقيا... وأمريكا اللاتينية»^(١٦). وفى مجلة البحث العلمى بجامعة «الجزويت» بـ «ماناجوا»، يعترف الباحثون بأنه يمكن وصف عملية ١١ سبتمبر بعملية «أرماجدون»، إلا أنهم يضيفون قائلين: إن نيكاراجوا قد «عاشت خبرتها الخاصة بأرماجدون، ولكن ببطء موجه» تحت وطأة الهجوم الأمريكى، وهى «الآن غارقة فى مأساتها الحالية»^(١٧). إن الحالات المتشابهة فى تزايد، حتى هذه اللحظة: ويكفى أن نقارن قائمة أكثر الدول تلقياً للأسلحة الأمريكية بتقارير حقوق الإنسان.

ولا يقف الأمر عند هذا الحد، فقد رفضت الولايات المتحدة النظر فى تسليم المتهمين المشكوك فيهم فى أحداث ١١ سبتمبر، كما رفضت انتظار إجازة وموافقة مجلس الأمن بشأن عملياتها الانتقامية، (التي قامت بها بعد ذلك فى أفغانستان). إن هذا الموقف يعكس قاعدة عالمية معروفة لدينا جميعاً، ألا وهى: أن الأقوياء لا ينتظرون ولا يعودون إلى أى سلطة.

لقد حاولت نيكاراجوا - تلك الدولة الصغيرة الضعيفة - أن تتبع قواعد القانون الدولى، ولكنها فشلت. وعندما طالبت «كوستاريكا» محاكمة المزارع الأمريكى الذى قام بتحويل أرضه إلى المخابرات المركزية الأمريكية، ليضعها تحت أيديها كقاعدة لانطلاق الهجمات الإرهابية ضد نيكاراجوا، تم تجاهل هذا الطلب، كما هو المعتاد^(١٨). وقد نجد حالة مماثلة ومواكبة جداً لما سبق، وهى حالة «إيمانويل كونستانت»، زعيم القوات العسكرية الهايتية، التى كانت مسئولة عن مقتل آلاف الهايتيين بدون وجه حق فى أوائل التسعينيات، فى ظل انقلاب عسكري، والتى عارضتها واشنطن رسمياً، ولكنها أيدتها ضمناً. وقد تم إصدار الحكم غيابياً على «كونستانت» فى المحكمة الهايتية. وقد طالبت هايتى الولايات المتحدة بمحاكمته ثانية فى ٣٠ سبتمبر ٢٠٠١^(١٩). إلا أن الطلب قبل مرة أخرى بالرفض، ربما بسبب تخوف الولايات المتحدة من إفصاحه عن العلاقات التى كانت تربطه بالإدارة الأمريكية فى أثناء الحملة الإرهابية التى كان يقودها ضد شعبه.

أثار الرئيس بوش (٢)، وغيره، تساؤلاً: «لماذا يكرهوننا؟» اقترحت إجابات عديدة ودقيقة فى نفس الوقت، إلا أنه هناك بعض الإجابات البسيطة التى يمكن أن تقفز إلى الأذهان بسهولة. إن هذا التساؤل يذكرنا بأن الأمر ليس جديداً. فنفس التساؤل تم إثارته فى عام ١٩٥٨م على لسان الرئيس «أيزنهاور». إن مشكلتنا فى العالم العربى، كما يخبر «أيزنهاور» مساعديه وموظفيه، «هى أننا نقف أمام حملة من الكره موجهة ضدنا، ليس من قبل الحكومات، ولكن من قبل الشعوب»، التى تقف على صف ناصر - «الشيوعى» (بالرغم من إنكار المخابرات المركزية الأمريكية ذلك بشدة)؛ بسبب موقفه القومى الاستقلالى^(٢٠). إن أحد أسباب الأزمة الأمريكية فى المنطقة، كما يعرضها وزير الخارجية «جون فوستر دالاس»: أن «الشيوعيين» لديهم القدرة على «التحكم والسيطرة على الحركات الشعبية،... وهو أمر ليس لدينا القدرة على فعله أو مجاراته... إن الفقراء هم من يتجهون إليهم... فقد كانوا يريدون دائماً سلب الأغنياء»^(٢١). ويقدم مركز الأمن القومى الأمريكى إجابة أخرى عن هذا التساؤل، وهى أكثر رسمية مما قبلها، وهى تقول: إن «معظم العرب» يرون الولايات المتحدة «كمعارضة لتحقيق أهداف القومية العربية»، ويعتقدون أنها «تسعى لحماية مصالحها المتمثلة فى النفط، من خلال تأييد الوضع القائم، ومن خلال معارضة أى تقدم سياسى أو اقتصادى». ويكمل المركز قائلاً: «إن مصالحنا الاقتصادية والثقافية فى المنطقة أدت إلى علاقات وطيدة بين الولايات المتحدة وعناصر معينة موجودة فى العالم العربى، تلك العناصر التى تمثل مصالحها الأولية فى حفظ العلاقات مع الغرب، وفى حفظ الوضع القائم فى دولها»^(٢٢).

بعد ١١ سبتمبر، قامت جريدة «وول ستريت جورنال» باستقصاء آراء «المسلمين ذوى المال»: رجال البنوك، المتخصصين، أصحاب الأعمال ذوى العلاقات الوطيدة مع الولايات المتحدة. فعكست ردودهم الضيق الشديد حيال التأييد الأمريكى لحكومات «الأنظمة الظالمة»، وحيال معارضة الإدارة الأمريكية للتنمية المستقلة والديموقراطية السياسية، بالإضافة إلى تبرمهم من بعض السياسات الخاصة، مثل تأييد الإدارة الأمريكية للاحتلال الإسرائيلى الغاشم، وتأييدها لفرض العقوبات على العراق، التى أتت على شعبه فدمرته، بينما تركت

الديكتاتور الدموي يزداد قوة وبطشاً - والذي أيدته الولايات المتحدة وبريطانيا في أشرس عملياته في داخل العراق . . . تلك الحقيقة التي ستظل باقية، حتى ولو فضل الغرب نسيانها^(٢٣). إن المشاعر تجاه الولايات المتحدة تكاد تكون واحدة، وسواد الشعوب لا تحب رؤية خيرات بلادها، وهي تتدفق إلى الغرب وإلى عملائه المحليين.

ولندع أنفسنا قليلاً مما ألفناه وعهدناه من العرف الدولي، ولنتهج مبدأ البديهية الأخلاقية، التي ذكرناها من قبل. فيمكننا حينئذ التساؤل والتأمل حول رد الفعل الصحيح والمفترض تجاه الجرائم الدولية. فعلى سبيل المثال، يمكننا أن نسأل: هل تمتلك دولة مثل هايتي الحق في استخدام القوة لإجبار «كونستانت» على الخضوع للمحاكمة، تبعاً لنموذج واشنطن مع أفغانستان؟ (بعد رفضها أخذ المحاكمة في الاعتبار). والسؤال قد يطرح نفسه مرة أخرى في حالة نيكاراغوا، تلك الحالة التي لا جدال عليها، وفي حالات كثيرة أخرى.

ردود الفعل، التي اقترحت حيال جرائم الإرهاب الدولي، كثيرة. من أهمها ما اقترحه القاتيكان، وتلفظ به المؤرخ «مايكل هوارد»، قائلاً: «عملية يقوم بها رجال الشرطة تحت إشراف الأمم المتحدة. . . ضد أي مؤامرة إجرامية، بحيث يتم القبض على أعضائها، وإيقافهم أمام محكمة دولية، ليتلقوا محاكمة عادلة، إذا ما وجدوا مذنبين، ومعاقبتهم بما يتناسب مع درجة جرمهم»^(٢٤). وبالرغم من أن هذا الاقتراح لم يلق حظاً من التأمل والتفكير، إلا أنه يبدو منطقيًا وحكيماً. وإذا ما تفكرنا فيه، فعلياً أن نطبقه على أكثر الجرائم إرهابية، مثل تلك التي تركت وراءها عشرات الآلاف من القتلى الأبرياء في نيكاراغوا، تلك الدولة التي لاقت من التدمير والدمار، ما لا يُتخيل إصلاحه.

إن الصديق يتركنا في النهاية أمام معضلة حقيقية: إما أن نهرب منها بالنفاق التقليدي المعهود (كما يفسره الإنجيل)، وهو الاختيار السهل، وإما أن نختر الطريق الصعب، ولكنه بالتأكيد الملزم لنا، إذا أردنا تخريب العالم مزيداً من الكوارث الأسوأ.

هوامش الفصل الأول

1. I have written about these matters often since the 1967 war, most recently in *World Orders Old and New*, Columbia University Press, New York, 1994; extended in 1996 with an epilogue carrying the account through Oslo II, the 1996 Israeli attack on Lebanon, and the May 1996 Israeli elections. Where not cited, sources can be found there.

2. In 1995, Venezuela edged out Saudi Arabia for the first time since the 1970s; Allanna Sullivan, *Wall Street Journal*, Jan. 3, 1996. On U.S.-Venezuela relations, which go well beyond oil, see Stephen Rabe, *The Road to OPEC*, University of Texas Press, Austin, 1982.

3. For production data, see David Painter, *Oil and the American Century*, Johns Hopkins University Press, Baltimore, 1986, p. 218. In 1925, the United States produced over 71 percent of the world's oil, the Caribbean 14 percent. In 1965, the U.S. share was over 27 percent, almost twice that of the next producer (the USSR; Venezuela third).

4. The operative principle was articulated by the State Department in 1944 in a memorandum called "Petroleum Policy of the United States." The United States then dominated Western Hemisphere production, which was to remain the largest in the world for another quarter century. That system must remain closed, the memorandum declared, while the rest of the world must be open. U.S. policy "would involve the preservation of the absolute position presently obtaining, and therefore vigilant protection of existing concessions in United States hands coupled with insistence upon the Open Door principle of equal opportunity for United States companies in new areas." U.S. Department of State, "Petroleum Policy of the United States (1944). Cited by Gabriel Kolko, *Politics of War*, Random House, New York, 1968, pp. 302f.

5. Rabe, op. cit. Lansing-Wilson cited by Gabriel Kolko, *Main Currents in American History*, Pantheon, New York, 1984, p. 47.

6. August, March 1945; William Roger Louis, *The British Empire in the Middle East: 1945-1951*, Oxford University Press, Oxford, 1984, pp. 231, 191. For a recent review of U.S. policies in the region, with special focus on Lebanon (important in large part as a transit point for oil), see Irene Gendzier, *Notes from the Minefield*, Columbia University Press, New York, 1997.

7. David E. Sanger, "U.S. Won't Offer Trade Testimony on Cuba Embargo," *New York Times*, Feb. 21, 1997, p. A1.

8. Roland deLigny, "World Court Denounces U.S. Support for Contras," Associated Press, June 27, 1986.

9. Jules Kagian, *Middle East International*, Oct. 21, 1994.

10. Gerald Haines, *The Americanization of Brazil*, Scholarly Resources, Wilmington, Del., 1989. Gendzier, op. cit., 41, citing treasurer Leo Welch.

11. *Fortune*, Jan. 1948. The specific reference is to the aircraft industry, today the leading "civilian" exporter thanks to massive public subsidy over

the years, but it was recognized that this is a model for "the future shape of the U.S. economy" quite generally. For more on the matter, see Chomsky, *World Orders Old and New*, chap. 2.

12. The first extensive work on the topic, still unequaled, is Gabriel Kolko, *Politics of War*. For general review using more recent sources as well, see my *Deterring Democracy*, extended edition, Vintage, Hill & Wang, New York, 1992, chap. 11.

13. See Michael Leffler, *A Preponderance of Power*, Stanford University Press, Stanford, 1992, p. 71; Sallie Pisani, *The CIA and the Marshall Plan*, University Press of Kansas, Lawrence, 1991, pp. 106–7.

14. *Foreign Relations of the United States, 1948*, vol. 3. NSC 1/3, March 8, 1948, pp. 775f.; Kennan, pp. 848f., U.S. Government Printing Office, Washington, D.C.

15. For ample illustration, see Edward Herman, *The Real Terror Network*, South End, Boston, 1982; my *Pirates and Emperors, Old and New: International Terrorism in the Real World*, South End Press, Cambridge, Mass., 2002; Alexander George, ed., *Western State Terrorism*, Polity, London, 1991. On oil companies and Italy, John Blair, *Control of Oil*, Pantheon, New York, 1976, p. 94f.

16. Gendzier, op. cit., 24f. Robert McMahon, *The Cold War on the Periphery*, Columbia University Press, New York, 1994, p. 221.

17. From State Department records, expressing concerns over the "philosophy of the new nationalism" sweeping Latin America, safely interred at a February 1945 hemispheric conference where the United States imposed its Economic Charter of the Americas, which guaranteed an end to economic nationalism "in all its forms." See David Green, *The Containment of Latin America: A History of the Myths and Realities of the Good Neighbor Policy*, Quadrangle, Chicago, 1971, 7: 2. For many examples, including these, see my *Year 501*, South End, Boston, 1993, chaps. 2, 7; and sources cited.

18. *Central America Report* (Guatemala), Feb. 4, 1994. See my *Deterring Democracy*, chaps. 5, 6.

19. In the United States, this is invariably termed "humanitarian aid," another expression of the disdain of the intellectual culture for international law when it interferes with state violence. The explicit determination of the World Court that all such aid was military, not humanitarian, was considered unworthy even of report.

20. The United States has been far in the lead in vetoing Security Council resolutions since the UN fell out of control with decolonization; the UK is second, France a distant third. For fact and propaganda on these matters, see *Deterring Democracy*, chap. 6.5.

21. Peter James Spielmann, "U.S. Says It Acted in Self-Defense in Panama," *Associated Press*, Dec. 20, 1989.

22. Chomsky, *Deterring Democracy*, chaps. 1, 3, 5, 6, afterword.

23. *National Security Strategy of the United States*, the White House, March 1990. See *Detering Democracy*, chap. 1, for excerpts.
24. For a particularly clear acknowledgment, see Christopher Layne (Cato Institute) and Benjamin Schwarz (Rand), *Foreign Policy*, Fall 1993.
25. Frank Costigliola, in Thomas Paterson, ed., *Kennedy's Quest for Victory*, Oxford University Press, Oxford, 1989; the reference is presumably to Dean Acheson.
26. John Balfour, British Embassy in Washington, to Bevin, Aug. 9, 1945; Bevin, Nov. 8, 1945. Cited by Mark Curtis, *Ambiguities of Power*, Zed, London, 1995, pp. 18, 23.
27. Christopher Thorne, *The Issue of War*, Oxford University Press, Oxford, 1985, pp. 225, 211. On the contempt for England and Europe generally, see Frank Costigliola, "Kennedy and the Failure to Consult," *Political Science Quarterly*, Spring 1995.
28. William Stivers, *Supremacy and Oil*, Cornell University Press, Ithaca, N.Y., 1982, pp. 28, 34; Stivers, *America's Confrontation with Revolutionary Change in the Middle East*, St. Martin's, New York, 1986, pp. 20f. 1946; Louis, op. cit., p. 353.
29. Diane Kunz, *Butter and Guns: America's Cold War Economic Diplomacy*, Free Press, New York, 1997, pp. 226, 88. Nadav Safran, *Israel: The Embattled Ally*, Harvard University Press, Cambridge, 1978, pp. 576, 110. Under Carter, U.S. aid to Israel rose to about half of total aid. Increasingly over the years, the official figures are greatly underestimated because of failure to include prepayment, forgiven loans, and other devices.
30. See my article in *Le Monde diplomatique*, April 1977; reprinted in *Towards a New Cold War*, Pantheon, New York, 1982, chap. 11.
31. Keegan quoted by Richard Hudson, *Wall Street Journal*, Feb. 5, 1991; Lloyd George by V.G. Kiernan, *European Empires from Conquest to Collapse*, Fontana, London, 1982, p. 200. On Churchill's enthusiasm for the use of "poisoned gas against uncivilised tribes" (specifically Kurds and Afghans, but "recalcitrant Arabs" generally), see Andy Thomas, *Effects of Chemical Warfare*, Stockholm International Peace Research Institute (SIPRI), Taylor & Francis, London, 1985, chap. 2. For quotes, see my *Turning the Tide*, South End, Boston, 1985, p. 126; *Detering Democracy*, chap. 6.1.
32. Irving Kristol, *Wall Street Journal*, Dec. 13, 1973.
33. Walter Laqueur, *New York Times Magazine*, Dec. 16, 1973.
34. Emma Rothschild, "Is It Time to End Food for Peace?" *New York Times Magazine*, March 13, 1977.
35. Ruth Wisse, *Commentary*, May 1988; Janet Tassel, "Marne-Loshn at Harvard," *Harvard Magazine*, July/Aug. 1997. Martin Peretz, interview in *Ha'aretz*, June 4, 1982.

36. For a broader sample, see my *Necessary Illusions*, South End, Boston, 1989, pp. 315f.; *Towards a New Cold War*, chap. 8.

37. Daniel B. Schirmer, *Fidel Ramos: The Pentagon's Philippine Friend 1992–1997*, Friends of the Filipino People, Cambridge, Mass., 1997.

38. Komer cited by Melvyn Leffler, *Diplomatic History*, vol. 7, 1983, pp. 245f. Dulles/Eisenhower cited by Irwin Wall, *Diplomatic History*, Fall 1994, from the Eisenhower library. *Foreign Relations of the United States, 1958–1960*, vol. 27, *Indonesia*, U.S. Government Printing Office, Washington, D.C., 1994, April 8 and Aug. 12, 1958; quotes are from U.S. Jakarta embassy cables, reporting Indonesian government conclusions, endorsed by the Joint Chiefs of Staff the same day. On Indonesia, see my *Powers and Prospects: Reflections on Human Nature and the Social Order*, South End, Boston, 1996, chap. 7, and sources cited; and on the reaction to the slaughter, *Year 501*, chap. 5. North African policy, *Foreign Relations of the United States, 1947*, vol. 5, p. 688, cited by Curtis, op. cit., p. 21. On the Middle East at the time, see particularly Gendzier, op. cit.

39. Kunz, op. cit., p. 237.

40. Albert Cavallo, "What Price Oil?" *Proceedings*, 17th Annual Wind Energy Conference, July 1995, Mechanical Engineering Publications, London, 1995.

41. Wilbur Edel, "Diplomatic History—State Department Style," *Political Science Quarterly* 106, no. 4 (1991/2).

42. For further elaboration, quotes, and sources on what follows, see Chomsky, *Deterring Democracy*, chap. 6. See also my *World Orders Old and New*, chap. 3; Gendzier, op. cit.

43. For sources and background discussion, see Chomsky, *World Orders Old and New*, pp. 79, 201ff.

44. Telegram no. 1979, July 19, 1958, to Prime Minister from Secretary of State, from Washington; File FO 371/132 779. "Future Policy in the Persian Gulf," Jan. 15, 1958, FO 371/132 778.

45. Undated sections of NSC 5801/1, "Current Policy Issues" on relations to Nasser-led Arab Nationalism, apparently mid-1958; NSC 5820/1, Nov. 4, 1958. See also Chomsky, *Deterring Democracy*, pp. 53ff; Chomsky, *Fateful Triangle: The United States, Israel, and the Palestinians*, updated ed., South End Press, Cambridge, Mass., 1999, chapter 2. See also Kirsten Cale, "Ruthlessly to Intervene," *Living Marxism* (London), Nov. 1990; Irene Gendzier, "The Way They Saw It Then," ms., Nov. 1990.

46. National Security Council Memorandum 5801/1, "Statement by the National Security Council of Long-Range U.S. Policy toward the Near East," January 24, 1958, *Foreign Relations of the United States, 1958–1960*, vol. 12 (*Near East Region; Iraq; Iran; Arabian Peninsula*), U.S. Government Printing Office, Washington, D.C., 1993, pp. 17–32. See also "Issues Arising out of the Situation in the Near East," July 29, 1958, *Foreign Relations*

of the United States, 1958–1960, pp. 114–24.

47. On Southeast Asia, see my *For Reasons of State*, Pantheon, New York, 1973, chap. 1; *Rethinking Camelot*, South End, Boston, 1993. For Latin America the point is obvious. Britain's analysis was much the same throughout the Third World. See Curtis, op. cit.

48. The statement continues: "the demise of the Soviet Union left the United States as the single power broker in the region and as such interested in its stability and prosperity." The United States is indeed interested in the "stability" of the region, in the technical sense of the term (meaning subordination to U.S. power) but is no more interested in its "prosperity" than its European predecessors, as policy demonstrates beyond serious doubt. Boas Evron, introduction to *Jewish State or Israeli Nation?* Indiana University Press, Bloomington, 1995.

49. Shlomo Gazit, *Yediot Ahronot*, April 27, 1992, cited and translated by Israel Shahak, *Middle East International*, March 19, 1993.

50. For some discussion, see my *Fateful Triangle*.

51. For references and further details, see Chomsky, *Towards a New Cold War*, chapter 7, and Chomsky, *Fateful Triangle*, chapter 2.

52. *Fateful Triangle*, pp. 457f. On the aftermath, see John Marshall, Peter Dale Scott, and Jane Hunter, *The Iran–Contra Connection*, South End, Boston, 1987; and my *Culture of Terrorism*, South End, Boston, 1988. Note that there were no hostages when the arms sales to Iran via Israel began, so it cannot have been an "arms for hostage" deal, as the affair is conventionally interpreted, picking it up at a later stage. Arming the military is a standard device for overthrowing a government, often successful, as in Sukarno's Indonesia and Allende's Chile, to mention two cases that might have been models for the Iran operation.

53. See testimony of Assistant Secretary of Defense Edward Gnehm, March 1, 1989, to House Subcommittee on Europe and the Middle East; Dore Gold, press briefing, Jerusalem, March 9, 1989; Dore Gold, *America, the Gulf, and Israel*, Westview, Boulder, Colo., 1988. Reported in *Media Analysis Center Backgrounder* no. 255, Jerusalem, March 1989. Gnehm testified that over half of the U.S. Foreign Weapons Evaluation budget was devoted to Israeli products, designed and developed in cooperation with the U.S. military industry.

54. For specific details and references, see sources already cited; see also Naseer Aruri, *The Obstruction of Peace*, Common Courage, Monroe, Maine, 1995; Norman Finkelstein, *Image and Reality in the Israel–Palestine Conflict*, Verso, London, 1995; Donald Neff, *Fallen Pillars*, Institute for Palestine Studies, Washington, 1995, among others.

55. See William B. Quandt, *Peace Process: American Diplomacy and the Arab–Israeli Conflict Since 1967*, rev. ed., University of California Press, Berkeley, 2001, appendix B: Joint U.S.–USSR Working Paper, Fundamen-

tal Principles (The Rogers Plan), October 28, 1969.

56. John Norton Moore, ed., *The Arab-Israeli Conflict*, Princeton University Press, Princeton, N.J., 1974, 3: 1103–11.

57. Yitzhak Rabin, *The Rabin Memoirs*, expanded ed., University of California Press, Berkeley, 1996, pp. 192f.

58. Yossi Beilin, *Mehiro shel lhud*, Revivim, 1985, pp. 118f., 155.

59. *Ha'aretz*, March 29, 1972, cited by John Cooley, *Green March, Black September*, Frank Cass, London, 1973, p. 162.

60. Haim Bar-Lev, *Ot*, March 9, 1972, cited by Amnon Kapeliouk, *Le Monde diplomatique*, Oct. 1977. Amos Elon, *Ha'aretz*, Nov. 13, 1981; the occasion was the “emotional and angry” reaction of the government to the Saudi peace plan of 1981, which “threatened Israel’s very existence,” Labor Party chairman Shimon Peres wrote (*Ha'aretz*, Aug. 10, 1981)—by calling for diplomatic settlement. In the *New York Times* today, criticizing Arab intellectuals for lack of support for the peace process, Elon writes that Sadat “was not yet ready to make peace” with Israel in 1972 and attacked the “defeatists” who called for a settlement; *New York Times Magazine*, May 11, 1997.

61. See my *Fateful Triangle* and *Pirates and Emperors*; Finkelstein, op. cit. For a brief review, see *World Orders Old and New*, chap. 2.

62. For a rare discussion, see my review of his memoirs, reprinted in *Towards a New Cold War*; see also David Korn, *Stalemate*, Westview, Boulder, Colo., 1992.

63. The PLO representative at the UN condemned the United States for blocking this two-state plan. See *Towards a New Cold War*, p. 430. Haim Herzog, *Jerusalem Post*, Nov. 13, 1981. The PLO gives the impression that it is unaware of its public support for the resolution. Spokespersons give various versions of PLO positions over the years, many not very credible.

64. *Towards a New Cold War*, chap. 12; *Fateful Triangle*, chap. 3, esp. nn. 88, 111; *Necessary Illusions*, app. 5.4; *Powers and Prospects*, chap. 7.

65. Rami Tal, “Moshe Dayan: Heshbon Nefesh,” *Yediot Ahronot*, April 27, 1997, interview of Nov. 22, 1976. See also n. 60. Dayan, Kapeliouk, op. cit., pp. 29, 279; Beilin, op. cit.

66. Along with other analysts, Dayan recognized that Sadat’s intentions in the 1973 war were far more limited, but seemed not to see the implications: that Sadat’s actions were an attempt to initiate the diplomatic track that the United States and Israel had blocked.

67. Ariel Sharon, *Yediot Ahronot*, July 26, 1973; radio, Joseph Fitchett, *Christian Science Monitor*, Oct. 27, 1973. “Arabs’ game,” Amnon Kapeliouk, *Israel: La Fin des mythes*, Albin Michel, Paris, 1975, pp. 200f., 281, a conception he attributes to the “General-Professor Yehoshaphat Harkabi,” a Hebrew University Arabist and former head of military intelli-

abi," a Hebrew University Arabist and former head of military intelligence, later a leading dove. Kapeliouk gives many similar quotes from high-ranking military officers and political leaders. See also chapter 4 of this volume.

68. Avner Yaniv, *Dilemmas of Security: Politics, Strategy, and the Israeli Experience in Lebanon*, Oxford University Press, New York, 1987, p. 70.

69. *Jerusalem Post*, Aug. 16, 1981.

70. Cited by William B. Quandt, op. cit., p. 576.

71. Ya'acov Lamdan, "What the PLO and Americans Told One Another," *Jerusalem Post*, Jan. 6, 1989.

72. Meeting with Jewish leaders, released under the Freedom of Information Act. *MERIP Reports*, May 1981; *Journal of Palestine Studies* (Spring 1981). See my *Towards a New Cold War*, 457.

73. UN press release GA/7603, Dec. 7, 1987 (42/159); see my "International Terrorism: Image and Reality," in *Western State Terrorism*, ed. Alexander George; Assistant Secretary of State for Human Rights John Shattuck, cited by Joseph Wronka, *American Society of International Law: Interest Group of the U.N. Decade of International Law*, Feb. 1997, no. 13.

74. Nahum Barnea, *Yediot Ahronot*, Feb. 24, 1989.

75. Israeli Government Election Plan, Jerusalem, May 14, 1989, Embassy of Israel.

76. Military correspondents Michael Gordon and Gen. (ret.) Bernard Trainor, USMC, *New York Times*, Oct. 23, 1994, excerpt from their book *The Generals' War: The Inside Story of the Conflict in the Gulf*, Little, Brown, Boston, 1995.

77. See Chomsky, *Deterring Democracy*, chap. 6, afterword; Hamid Mowlana, George Gerbner, and Herbert Schiller, *Triumph of the Image*, Westview, Boulder, Colo., 1992; Curtis, op. cit. The best general study is Dilip Hiro, *Desert Shield to Desert Storm*, HarperCollins, New York, 1992. Another is Lawrence Freedman and Efraim Karsh, *The Gulf Conflict 1990-1991*, Princeton University Press, Princeton, N.J., 1992. The authors praise themselves for "the scope and originality of our analysis," which uses "evidence from all available sources," contrasting their achievement with mere journalism. In reality, they ignore entirely or omit basic sources on major issues (e.g., prewar diplomatic interactions, which, furthermore, they misrepresent in their scanty comments; the views of Iraqi democrats and the population of the region generally; the illuminating record of U.S. and British documents). Even their efforts to present the U.S.-UK effort in the most favorable light conclude that Saddam's goal was not annexation or "a permanent military presence" but "to establish hegemony over Kuwait, ensuring its complete financial, political and strategic subservience to his wishes," much as intended by the United States in Panama and Israel in Lebanon (and achieved, in the former case).

Saddam's scheme "turned sour," they say, because of the international reaction; to translate, because of the differential U.S. reaction. The authors seem not to realize that their conclusions undercut the central thesis of their book about the nobility of the U.S.-UK leadership.

78. Rick Atkinson, Ann Debroy, and *Washington Post* staff writers, "Bush: Iraq Won't Decide Timing of Ground War," *Washington Post*, Feb. 2, 1991, p. A1.

79. Thomas L. Friedman, "The World: A Rising Sense That Iraq's Hussein Must Go," *New York Times*, July 7, 1991, sec. 4, p. 1.

80. Quoted by John Pienaar, "Crisis in the Gulf: Arm Rebels, Senior Tory Urges," *The Independent* (London), April 6, 1991, p. 1.

81. For review and sources, see my *Detering Democracy*, chap. 6 and afterword; *World Orders*, chap. 1; *Powers and Prospects*, chap. 7.

82. David Bar-Illan, director of communications and policy planning in the office of the prime minister, interview with Victor Cygielman, *Palestine-Israel Journal* (Summer/Autumn 1996). Among his other noteworthy observations is that Lebanon "has been able to attack us and make our lives intolerable for more than 15 years," a statement that might not be easy to match in the annals of apologetics for state terrorism.

83. Bill Freund, *The Making of Contemporary Africa*, University of Indiana Press, Bloomington, 1984, p. 270.

84. Asher Davidi, *Davar*, Feb. 17, 1993, trans. Zachary Lockman, *Middle East Report*, Sept.-Oct. 1993.

85. Michael Yudelman, "Labor Government Ready to Take On Labor Unions," *Jerusalem Post*, Nov. 26, 1993. Ya'akov Yona, "The Peace Process as an Obstacle to Employment," *Ma'ariv*, Jan. 19, 1996. On the use of transfer threats to undermine labor organizing, accelerating since the NAFTA agreement with Mexico (illegal, but "tolerated" by the administrations from Reagan through Clinton), see Cornell University labor economist Kate Bronfenbrenner, "We'll Close," *Multinational Monitor*, March 1997, based on the study she directed: "Final Report: The Effects of Plant Closing or Threat of Plant Closing on the Right of Workers to Organize." The study, conducted under NAFTA rules in response to labor complaints of violations (upheld after a long delay but with trivial penalties, as is the norm), was authorized for release by Canada and Mexico but has so far been blocked by Clinton's Labor Department.

86. See Ronen Bergman and David Ratner, "The Man Who Swallowed Gaza," *Ha'aretz Supplement*, April 4, 1997; David Hirst, "Shameless in Gaza," *The Guardian* (London), April 21, 1997; Judy Dempsey, "Poor Pickings in Gaza for Palestinian Entrepreneurs," *Financial Times* (London), May 3/4, 1997, reviewing also Israeli economic sabotage; "The Netanyahu Government Will Pay the PLO about [\$1.5 billion] a Year," *Nekuda*, April 1997. David Bedein, "So Much for Promises," *Jerusalem Post*, Feb. 4, 1996.

87. David Gardner, "Gloom over Palestinian Economy: IMF Says Joblessness Has Soared and Per Capita Income Has Fallen since Oslo Accords," *Financial Times* (London), March 7, 1997, p. 4.

88. United Nations Relief and Works Agency (UNRWA), Reuters, *New York Times*, May 27, 1997. Peter Kiernan, *Middle East International*, June 27, 1997.

89. Dayan, Herzog, quoted from internal discussion in Beilin, op. cit., pp. 42, 147.

90. See epilogue, *World Orders Old and New*, citing *Report on Israeli Settlement*, March 1996; Chronology, *Palestine-Israel Journal*, Summer/Autumn 1996. Nadav Shragai, *Ha'aretz*, March 3, 1997. Beilin, quoted by Tikva Honig-Parnass, *News from Within*, April 1997.

91. See epilogue, *World Orders Old and New*.

92. Aluf Ben, *Ha'aretz*, Feb. 7, 1995. For information and background, see Israel Shahak, *Ideology as a Central Factor in Israeli Policies* (in Hebrew), May-June 1995.

93. Farouk Kaddoumi, interview, *Frontline* (India), May 30, 1997, at the Non-Aligned Foreign Ministers Conference in New Delhi. El-Abayad, Embassy of Egypt in Washington, letter, *National Interest*, Summer 1997.

94. Yossi Melman, "Dunam after Dunam Amounts to a Billion," *Yom Rishon*, April 20, 1997.

95. Avi Shlaim, *Collusion across the Jordan*, Columbia University Press, New York, 1988, p. 491, citing Israeli state archives.



هوامش الفصل الثاني

1. Carol Christian, "Sanctions against Iraq Killing Thousands, ex-U.N. Official Says; Protest Tour Stops at Houston Church," *Houston Chronicle*, Feb. 24, 1999, p. A25.

2. *60 Minutes*, May 12, 1996.

3. General Lee Butler, "The Risks of Deterrence: From Superpowers to Rogue Leaders," remarks at the National Press Club, Feb. 2, 1998 (see <http://www.cdi.org/issues/armscontrol/butler.html>).

4. "Essentials of Post-Cold War Deterrence," 1995. For excerpts, see my *New Military Humanism*, Common Courage Press, Monroe, Maine, 1999, chap. 6.

5. Yoev Appel, "Indyk Expresses US Condemnation of Attack," *Jerusalem Post*, March 5, 2001.

6. For figures, see the tables compiled by B'Tselem (http://www.btselem.org/English/Statistics/Al_Aqsa_Fatalities_Tables.asp) and the Palestinian

Red Crescent (http://www.palestinercs.org/crisistables/oct_2002_table.htm).

7. Dave McIntyre, "U.S. Walks Fine Line of Neutrality in Mideast Crisis," *Deutsche Presse-Agentur*, Oct. 3, 2000.

8. See the Amnesty International website, <http://www.amnesty.org>.

9. Associated Press, "Israel Orders Nine Apache Longbow Helicopters for \$500 Million," Feb. 20, 2001. "Israel to Buy Boeing Helicopters," *Wall Street Journal*, Feb. 20, 2001, p. B10. See additional references in my introduction to Roane Carey, ed., *The New Intifada*, Verso, New York, 2001, p. 21n10. Reprinted in Chomsky, *Pirates and Emperors, Old and New: International Terrorism in the Real World*, South End Press, Cambridge, Mass., 2002.

10. Ann Thompson, "Arming Israel . . .," *News and Observer* (Raleigh, N.C.), Oct. 12, 2000, p. A19.

11. See my *Detering Democracy*, extended edition, Vintage, Hill & Wang, New York, 1992, pp. 181–82.

12. "Issues Arising out of the Situation in the Near East" July 29, 1958, *Foreign Relations of the United States, 1958–1960*, vol. 12 (Near East Region; Iraq; Iran; Arabian Peninsula), U.S. Government Printing Office, Washington, D.C., 1993, pp. 114–24.

13. For references and further details, see my *Towards a New Cold War*, Pantheon, New York, 1982, chap. 7, and *Fateful Triangle: The United States, Israel, and the Palestinians*, updated ed., South End Press, Cambridge, Mass., 1999, chap. 2.

14. David Hoffman, "President Gives Eulogy for 37 Killed in Attack on U.S. Ship; Men Hailed for 'Extraordinary' Acts," *Washington Post*, May 23, 1987, p. A1.

15. Molly Moore and George Wilson, "Captain Saw 'Definite Threat'; Firing at Plane Called Defensive, 'a Burden I Will Carry'," *Washington Post*, July 5, 1988, p. A1.

16. Shlomo Ben-Ami, *Makom Lekulam* [A Place for All], Hakibbutz Hameuchad, Jerusalem, 1987. Cited in Efraim Davidi, "Globalization and Economy in the Middle East—A Peace of Markets or a Peace of Flags?" *Palestine-Israel Journal*, vol. 7, no. 1–2, 2000.

* * *

هوامش الفصل الثالث

1. Judy Dempsey, "Barak Warned That Cutting Off Palestinians Could Backfire," *Financial Times* (London), Oct. 21, 2000. Also, Deborah Sontag, "Israel Weighs Plan to Create Borders if Talks Fail," *New York Times*, Oct. 22, 2000, section 1, p. 1.

2. For more on the negotiations and their background, see my "Peace Process' Prospects," ZNet Commentary, July 27, 2000, online at

<http://www.zmag.org/chompeacepro.htm>; and for further background, see Alex R. Shalom and Stephen R. Shalom, "Turmoil in Palestine: The Basic Context," ZNet Commentary, Oct. 10, 2000, online at http://www.zmag.org/turmoil_in_palestine.htm.

3. See the tables compiled by B'Tselem (http://www.btselem.org/English/Statistics/Al_Aqsa_Fatalities_Tables.asp) and the Palestinian Red Crescent (http://www.palestinercs.org/crisistables/oct_2002_table.htm).

4. Baruch Kimmerling, *Ha'aretz*, Oct. 4, 2000.

5. Amira Hass, "Beaten and Betrayed: Israel Has Reneged on the Oslo Accords with Arafat's Collusion; Palestinians Have Had Enough," *The Guardian* (London), Oct. 3, 2000, p. 21.

6. Dempsey, op. cit.

7. Avi Shlaim, *Collusion across the Jordan: King Abdullah, the Zionist Movement, and the Partition of Palestine*, Columbia University Press, New York, 1988, p. 491, citing the Israeli state archives. For references and further details, see my *Towards a New Cold War*, Pantheon, New York, 1982, chap. 7; *Fateful Triangle: The United States, Israel, and the Palestinians*, updated ed., South End Press, Cambridge, Mass., 1999, chap. 2; and chap. 7, this volume.

8. Amira Hass, *Ha'aretz*, Oct. 18, 2000.

9. Shlomo Tzezna, "The Construction in the Territories Was Frozen, and It Continues," *Ha'aretz*, Aug. 18, 2000.

10. Danny Rubinstein, *Ha'aretz*, Oct. 23, 2000.

11. Amnon Barzilai, *Ha'aretz*, Oct. 3, 2000; Avi Hoffman, "The Colossus of Seattle," *Jerusalem Post*, Oct. 8, 2000.

12. See "Israel and the Occupied Territories," http://www.amnestyusa.org/news/2000/israel10192000_2.html.

13. Associated Press, "U.S. Abstains in Resolution Condemning Use of Force," *New York Times*, Oct. 8, 2000, section 1, p. 10.

14. William A. Orme Jr., "Israelis Criticized for Using Deadly Force Too Readily," *New York Times*, Oct. 4, 2000, p. A20.

15. Quoted by Judy Dempsey, "Palestinians Count Human Cost of the Violence," *Financial Times* (London), Oct. 6, 2000.

16. Quoted in Dave McIntyre, "U.S. Walks Fine Line of Neutrality in Mideast Crisis," *Deutsche Presse-Agentur*, Oct. 3, 2000.

17. See Noam Chomsky, *A New Generation Draws the Line: Kosovo, East Timor and the Standards of the West*, Verso, New York, 2000.

18. "Israel Must End the Hatred Now: A True Palestinian State is Essential," *Observer* (London), Oct. 15, 2000, p. 28.

* * *

هوامش الفصل الرابع

1. Baruch Kimmerling, "Preparing for the War of His Choosing," *Ha'aretz*, July 12, 2001. Available online at http://www.palestinemonitor.org/israelipoli/preparing_for_the_war_of_his_cho.htm.
2. Ze'ev Sternhell, "Balata Has Fallen," *Ha'aretz*, March 7, 2002.
3. Shlomo Ben-Ami, *Makom Lekulam* [A Place for All], Hakibbutz Hameuchad, Jerusalem, 1987. Cited in Efraim Davidi, "Globalization and Economy in the Middle East—A Peace of Markets or a Peace of Flags?" *Palestine-Israel Journal*, vol. 7, nos. 1–2 (2002).
4. Kimmerling, op. cit.
5. "Moving Past War in the Middle East," *New York Times*, April 7, 2002.
6. Text of a peace initiative authorized by the government of Israel on 15 May 1989 (the Peres-Shamir coalition plan, endorsed by the first President Bush in the Baker plan of December 1989). See my *World Orders Old and New*, Columbia University Press, New York, 1999, pp. 231–2 for an informal translation of this peace initiative; see also <http://domino.un.org/UNISPAL.NSF/bdd57d15a29f428d85256c3800701fc4/2fa32a5884d90dc985256282007942fa!OpenDocument>.
7. John Donnelly and Charles A. Radin, "Powell's Trip Is Called a Way to Buy Time for Sharon Sweep," *Boston Globe*, April 9, 2002, p. A1.
8. See my *Fateful Triangle: The United States, Israel, and the Palestinians*, updated ed., South End Press, Cambridge, Mass., 1999, p. 75.
9. Patrick E. Tyler, "Arab Ministers Announce Support for Arafat," *New York Times*, April 7, 2002, section 1, p. 17; Agence France-Presse, "Israeli Troops Keep Up Offensive as Powell Starts Regional Tour," April 8, 2002; Toby Harnden, "It Is When, Not If, the Withdrawal Will Start," *Daily Telegraph* (London), April 8, 2002; Robert Fisk, "Mr. Powell Must See for Himself What Israel Inflicted on Jenin," *The Independent* (London), April 14, 2002, p. 25.
10. Melissa Radler, "UN Security Council Endorses Vision of Palestinian State," *Jerusalem Post*, March 14, 2002.
11. See chap. 8 and, for more details, my introduction to Roane Carey, ed., *The New Intifada*, Verso, New York, 2001. Reprinted in Chomsky, *Pirates and Emperors, Old and New: International Terrorism in the Real World*, South End Press, Cambridge, Mass., 2002.
12. Fiona Fleck, "114 States Condemn Israelis," *Daily Telegraph* (London), Dec. 6, 2001; Herb Keinon, "Geneva Parley Delegates Blast Israel," *Jerusalem Post*, Dec. 6, 2001.
13. Graham Usher, "Ending the Phony Cease-Fire," *Middle East International*, Jan. 25, 2002, p. 4.
14. Geoffrey Aronson, ed., *Report on Israeli Settlements in the Occupied Territories* (Foundation for Middle East Peace), vol. 12, no. 1, Jan.–Feb. 2002; Ian Williams, *Middle East International*, Dec. 21, 2001; Judy Dempsey

and Frances Williams, "EU Seeks to Reassert Mideast Influence," *Financial Times* (London), Dec. 6, 2001, p. 7.

15. Francis A. Boyle, "Law and Disorder in the Middle East," *The Link* (Americans for Middle East Understanding), vol. 35, no. 1, Jan.-March 2002, pp. 1-13. (Full text available online at http://www.ameu.org/uploads/vol35_issue1_2002.pdf.)



هوامش الفصل الخامس

1. Associated Press, Oct. 17, 1985 (Reagan); Associated Press, Oct. 25, 1984 (Shultz). See also Shultz, U.S. Dept. of State, *Current Policy*, no. 589, June 24, 1984; Shultz, U.S. Dept. of State, *Current Policy*, no. 629, Oct. 25, 1984.

2. David K. Shieler, "Shultz Assails Nicaragua in Asking Aid for Rebels," *New York Times*, Feb. 28, 1986, p. A6. Testimony to the Senate Foreign Relations Committee, Feb. 27, 1986.

3. "Shultz Denounces Nicaragua and Says It Endangers U.S.," *New York Times*, Aug. 5, 1988, p. A5, drawing on Associated Press reports from Aug. 4, 1988.

4. John Hanna, "Shultz Blasts Critics, Calls Nicaragua a 'Cancer,'" Associated Press, April 14, 1986. See also United Press International, Report of Shultz's April 14, 1986, speech at Kansas State University. See also Shultz, "Moral Principles and Strategic Interests," U.S. Dept. of State, *Current Policy*, no. 8201, April 14, 1986. On Shultz's congressional testimony, see Jack Spence's chapter in *Reagan versus the Sandinistas*, ed. Thomas Walker, Westview Press, Boulder, 1987.

5. U.S. Army Operational Concept for Terrorism Counteraction, TRADOC Pamphlet no. 525-37, 1984.

6. Michael R. Gordon, "Allies Preparing for a Long Fight as Taliban Dig In," *New York Times*, Oct. 28, 2001, section 1A, p. 1.

7. *Jerusalem Post*, Aug. 16, 1981; see also Chomsky, *Fateful Triangle: The United States, Israel, and the Palestinians*, updated ed., South End Press, Cambridge, Mass., 1999, chap. 5, sections 1, 3, 4, for further quotes, background, and description.

8. See Chomsky, *Pirates and Emperors, Old and New: International Terrorism in the Real World*, South End Press, Cambridge, Mass., 2002, pp. 39-40.

9. Bernard Gwertzman, "U.S. Defends Action in U.N. on Raid," *New York Times*, Oct. 7, 1985, p. A3; Elaine Sciolino, "U.N. Body Assails Israeli Air Strike," *New York Times*, Oct. 5, 1985, p. 1.

10. Bernard Weinraub, "Israeli Extends 'Hand of Peace' to Jordanians," *New York Times*, Oct. 18, 1985, p. A1.

11. Roland de Ligny, "World Court Denounces U.S. Support for Contras," Associated Press, June 27, 1986.
12. See Chomsky, *Deterring Democracy*, extended edition, Vintage, Hill & Wang, New York, 1992, pp. 315–16.
13. "Report to the President on Latin American Mission," March 10, 1961, *Foreign Relations of the United States, 1961–1963*, vol. 12 (*The American Republics*), U.S. Government Printing Office, Washington, D.C., 1996, Record No. 7, p. 13; "United States Policy Toward Latin America," July 3, 1961, *Foreign Relations of the United States, 1961–1963*, vol. 12 (*The American Republics*), U.S. Government Printing Office, Washington, D.C., 1996, Record No. 15, p. 33.
14. "Report to the President on Latin American Mission," March 10, 1961, p. 13.
15. Ricardo Stevens on Radio La Voz del Trópico (Panama), Oct. 19, 2001. Reprinted in "The Americas React to Terror," *NACLA Report on the Americas*, vol. 35, no. 3 (Nov.–Dec. 2001).
16. Eduardo Galeano, in *La Jornada* (Mexico), quoted in Alain Frachon, "America Unloved," *World Press Review*, vol. 48, no. 12, Dec. 2001, and Alain Frachon, *Le Monde*, Nov. 24, 2001.
17. *Envío*, Universidad Centroamericana, Managua, Nicaragua, Oct. 2001.
18. Richard Cole, "Costa Rica Asks U.S. to Extradite Iran-Contra Figure in Bombing Deaths," Associated Press, April 26, 1991.
19. Associated Press, "Aristide, in 3rd Term, Marks 1991 Ouster," *New York Times*, Oct. 1, 2001, p. A10.
20. For sources and background discussion, see Chomsky, *World Orders Old and New*, updated ed., Columbia University Press, New York, 1996 pp. 79, 201ff.
21. For sources and background discussion, see Chomsky, *Year 501*, South End, Boston, 1993, p. 39.
22. National Security Council Memorandum 5801/1, "Statement by the National Security Council of Long-Range U.S. Policy toward the Near East," Jan. 24, 1958, *Foreign Relations of the United States, 1958–1960*, vol. 12 (*Near East Region; Iraq; Iran; Arabian Peninsula*), U.S. Government Printing Office, Washington, D.C., 1993, pp. 17–32.
23. Peter Waldman et al., "The Moneyed Muslims Behind the Terror," *Wall Street Journal*, Sept. 14, 2001, p. A6; Peter Waldman and Hugh Pope, "Worlds Apart: Some Muslims Fear War on Terrorism Is Really a War on Them," *Wall Street Journal*, Sept. 21, 2001, p. A1.
24. Michael Howard, "Mistake to Declare this a 'War,'" *The London Evening Standard* (online edition), Oct. 31, 2001 (http://www.fpp.co.uk/online/01/11/WTC_MichaelHoward.html).

* * *

المحتويات

الصفحة

الموضوع

٥	تقديم
٧	الفصل الأول: «عملية السلام» فى الاستراتيجية الأمريكية العالمية
٤٩	الفصل الثانى: إمكانيات السلام فى الشرق الأوسط
٦٩	الفصل الثالث: انتفاضة الأقصى
٧٩	الفصل الرابع: الولايات المتحدة - إسرائيل - فلسطين
٨٧	الفصل الخامس: عالم متغير؟ إعادة التفكير فى الإرهاب بعد ٩ / ١١ ...
٩٥	الهوامش

رقم الإيداع ٢٠٠٣/٢٠٦٣٢

الترقيم الدولي 6- 23- 977-09-10 I.S.B.N.

مطابع آمون

٤ الفيروز من ش إسماعيل اباطنة
لاظوغلى - القاهرة - ج م ع
ت : ٧٩٤٤٥١٧ - ٧٩٤٤٣٥٦



إن عرفات ، عليه أن يعلن
(أننا نضع مستقبلنا
ومصائرنا في أيدي الولايات
المتحدة)
التي قادت حملتها لتقويض
الحقوق الفلسطينية طيلة
ثلاثين عاما.

حادثة مروعة أخرى عام
١٩٨٥م ، في بيروت ، أمام
مسجد ، أسفرت عن : مقتل
٨٠ ، وجرح أكثر من ٢٥٠
معظمهم من البنات
والنساء ، وعمليات وحشية
أخرى تم وصفها ببساطة في
الصحف الأمريكية ، وكانت
المخابرات المركزية
الأمريكية بتأييد بريطاني
سعودي وراء تنظيم هذه
الجريمة ، التي استهدفت
قتل عالم ديني مسلم ،
واستطاع أن يفلت من
أيديهم في النهاية .

الصحفي الپنمی (ریکاردو
ستیفینز) ، على سبيل المثال ،
يتذكر ذلك الحادث ، الذي
شهد مقتل حوالي ألف نفس
بريئة (جرائم غربية ، ومن
ثم غير معلنة) ، حينما قام
(جورج بوش ١) بتفجير بار
(شوريلو) في ديسمبر
(١٩٨٩ م) ، من ضمن (عملية
السبب العادل) ، بهدف خطف
ذلك العاصي العاق ، الذي
حُكم عليه بالسجن مدى
الحياة في فلوريدا ، بسبب
جرائم ارتكبها في فترة
عمله في (المخابرات
المركزية الأمريكية)
إدوارد ووكر ، الموظف
بوزارة الخارجية الأمريكية ،
والمسئول عن المنطقة تحت
إدارة كلينتون .





04
82

Bibliotheca Alexandrina



0413238



الكتاب

